كتاب الكلمة : ٤

دراسات في التراث اليمني

عبد الله الحبشي

دار العودة بيروت

مختار محمد الضبيبي

دراسات في التراث اليمني

كتاب الكلمة : ٤

دراسات في التراث اليمني

عبدالله الحبشي

دار العودة - بيروت

الطبعة الأولى ١ / ٧ / ١٩٧٧

دار العودة للصحافة والطباعة والنشر – بيروت
كورنيش المزرعة تلفون ٣١٠٨٤٠

مدخـل الى فهم المصادر اليمنية

١

كان التراث اليمني لغزاً مطلسما أمام الباحثين المعاصرين لا أحـــد يعرف مكنونه ولا محتواه ، وكأنه أصبح على مرور الأيام صفة من علامات التخلف والجمود . بل لا نغلو في القول إذا قلنـا ان الأفكار التي طرأت على العقول في السنوات الأخيرة ساعدت على تشويه التراث ونفور الأبناء منه . وما ذاك إلا للنظرة الغامضة التي حملها العصر تجاهه وعدم وجود المدافع عنـه والمستخلص منه الآثار الناصعة المشجعة للنهوض والتركيز عليها. ومنه ما يستحق الوقوف وكتابة الدراسات الطويلة عنه .

وكوجه مشرق من وجوهـــه المتعددة نجد جانب التاريخ وهو الصورة المحنطة داخـل المخطوطات لمجتمعنا القديم الذي عاشه أجدادنا خـلال العصر الاسلامي على مختلف الفترات . ونرى انه لولا نشاط الحركة الكتابية التاريخية في اليمن التي مارسها اليمني عبر عصوره منذ القرن الأول الهجري وتطورها

حتى أصبحت فناً مدروساً له اعلامه ومناهجه لما شاهدنا تلك الحصيلة الضخمة من المخطوطات التاريخية التي تمخضت عنها المكتبة اليمنية .

ويصعب على الباحث اكتناه مضمون هذا التراث على حقيقته لعدم وجود الامكانيات المتاحة له كسائر تلك السبل التي عملت لتراث البلاد العربية الأخرى .

إلا انه كنظرة أولية نلاحظ على التراث اليمني في مجال التاريخ انه قد مر على ثلاث مراحل كل منها مطور لما قبله وهي :

١ – **مرحلة الاسطورة** . وتمثلها على وجه الخصوص كتب الاخباريات التي وصلتنا ككتاب عبيد بن شريه وكتاب التيجان لوهب بن منبه وبعض كتب محمد بن السايب الكلبي وغيرهم .

٢ – **مرحلة النضوج** . ونجدها في كتابات ما بعد القرن الثالث الهجري في أعمال المؤرخ الحسن بن احمد الهمداني ومن عاصره في تلك المرحلة . وقد بلغت مرحلة النضوج ذروتها في كتب الحوليات ككتاب الخزرجي عن الدولة الرسولية وكتب المؤرخ اليمني عبد الله بامخرمه وغيرها .

٣ – **مرحلة التخصص** . وهي سمة خاصة بالتراث اليمني رأيناها في التواريخ الخاصة ببعض الأسر ككتاب المشرع الروي في مناقب بني علوي وهو مطبوع وكتاب السمط الحاوي في مناقب بني السماوي .

هذه أهم العناصر المكونة للحصيلة التاريخية عندنا في اليمن وسوف نقف عندها في هذه العجالة :

مرحلة الأسطورة

رافقت الكتابة التاريخيـة في اليمن العصر الجاهلي بأكمله ويرى المستشرق الانجليزي الكبير مارغليوث في النقوش التي بقيت عن دولة معين وسبأ أعمالاً تاريخية ونجده في كتابه « دراسات عن المؤرخين المسلمين » يحلل نقشاً من تلك النقوش كمصدر تاريخي .

وقد كانت تلك المأثورات عن العصور الجاهلية القديمة في اليمن هي النبع الأول للمؤرخ القديم عبيد بن شريه اليمني المتوفي ٧٠ هـ حين استقدمه إلى دمشق الخليفة الاسلامي معاوية بن أبي سفيان وطلب منه أن يلقي على كتبته بعض ما يحفظه عن الملوك الأولين من أخبار ونوادر . وقد انتهت مجالسه تلك بكتـاب أسمـاه « تاريخ الملوك الأولين » كان مصدراً لكل من أتى بعده من أصحاب القصص ومفسري القرآن أمثال : الكسائي والثعالبي وغيرهما وقد وجد هؤلاء فيما كتبه عبيد بن شريه مخرجاً لما ورد في القرآن من قصص تتعلق باليمن كقصة بلقيس وأصحاب الأخدود وغيرها .

ويرى الباحث الألماني هوروفيتش ان « دراسة القرآن أدت إلى الاشتغال بتاريخ اليمن فقد اعطتهم السورة خمسة وثمانون التي تتناول «أصحاب الأخدود» الفرصة للبحث في انتشار اليهودية والمسيحية في جنوب بلاد العرب لأن التفاسير المأثورة ترى في هذه الآيات اشارة الى سقوط ذي نواس الملك اليهودي على حين رغبوا في دراسة أصحاب الفيـل لمعرفة جيش ابرهه والي اليمن الحبشي الذي منعه أمر الله من متابعة الهجوم على مكة وحرمها . .

هذا وبجانب الدراسات القرآنيـة المتعلقة باليمن فقد جاءت شروح الحديث والسيرة النبويـة متممة لتلك فقد كان اعجاب النبي ﷺ بأهل اليمن والثناء عليهم في العديد من الأحاديث الشريفة مشجعاً على نحل المئات منها ونسبتها اليه

ﷺ حتى انه أفردها بعضهم بالتصنيف وهي تلك الكتب التي نصطلح على تسميتها بكتب الفضائل ويكفي أن نشير إلى أن فضل وجود هذه الكتب يعود أساساً إلى احاديث النبي ﷺ.

كل هذه العوامل أدت إلى تضخم الحركة التاريخيـــة عن اليمن وقد أظهر كتاب القرنين الأول والثاني اقبالاً ملموساً على الدراسات اليمنية وبجانب تلك الأخبار التي أتت ضمنية في تفاسير القرآن وفي كتـاب السيرة النبوية ، وكتب المغازي وشروح الحديث فان هناك كتباً متخصصة تناولت اليمن . ومن هؤلاء أولاً المؤرخ دغفل النسابـــة بن حنظلة السدوسي المتوفي سنة ٦٠ هـ وينسب له كتاب عنوانه « السيرة » منه نسخة بالمكتبة الامبروزيانية وهو يروي أخبـار ملوك حمير ومن كان قبلهم من عاد وثمود . وقد جاء في مقدمته ان هارون الرشيد سمع بشخص من أهل الشحر يقـال له عمرو بن مالك الشحري فطلب مقدمه . وحين وصل أملي عليه هذا الكتاب وسأله من أين تلقيت هذا العـــلم فقال عن دغفل بن حنظلة . ومن ثم فهما مشتركان في تأليف هذا الكتاب وان كان من الأولى ان النسبة إلى عمرو بن مالك .

أما الباحث الدكتور حسين نصار فيكتفي بنسبة الكتاب إلى دغفل ويطلق عليه اسم « التظافر والتناصر » ويقول انه عبارة عن مجالس جرت له مع معاوية إلا أنه لا يرجعنا إلى اصل مخطوط الكتاب وهو يعتمد في هذا على نقل أورده مؤلف « التحفة البهية » ولعل الاستاذ لم يعرف شيئاً عن نسخة الامبروزيانا .

واذا صحت نسبة هذا الكتـــاب الى دغفل فانـــه يكون هو وكتاب عبيد بن شريه وكتاب التيجان لوهب بن منبه من الأصول القديمة التي أرخت لليمن خلال القرن الأول الهجري .

وثاني هؤلاء المؤرخـين عبيد بن شريه وقد ألف كتابه بأمر من معاوية كما أشرنا من قبل وفي الكتاب حكاية تروي سبب تأليفه وهي أن عمرو بن العاص مستشار معاوية لما رأى منه حباً للمسامرة والنوادر دله على عبيد بن شريه وأمر

باحضاره لهذا الغرض فأملى على كتابه مؤلفه هذا وهو يتميز عن سابقه بأن كل ما فيه يدور حول اليمن . مبتدئاً فيـــه ببدء الخليقة وتفرق الناس من أرض بابل الى شتى بقاع المعمورة وخروج بعض ابنــاء سام بن نوح إلى اليمن . ويقف المؤلف هنا ليتوسع في تاريخ اليمن وذكر ابنائها وملوكها إلا انه يتوقف عنـد طسم لسبب قـــد يعود الى نقص النسخة الموجودة منه ، ويهمنا هنا ملاحظة الدكتور حسين نصار حول هذا الكتاب وهي قوله : ان الكتاب ليس كتاباً تاريخياً بالمعنى المصطلح عليه وانما هو مجالس سمر تاريخية مدونة ولذا يغلب على تلك المجالس طابع الوعظ والزهد .

الثالث وهب بن منبه المتوفي (٧٢٨) م وهو شخصية عجيبة تضاربت فيها الأقوال فمن رأي قائل انه أفسد تفاسير القرآن وأدخـل عليها كثيراً من كتب اليهود والنصارى ويصفه ابن خلدون مع كعب الأحبـــار وعبد الله بن سلام وغيرهم من يهود صدر الاسلام الذين اسلموا ويرى ان كثيراً من بني حمير الذين اعتنقوا الاسلام وكانوا من قبل يدينون باليهودية « بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها مثل اخبار بدء الخليقة وما يرجع الى الحدثان والملاحم . فأمتـــلأت التفاسير من المنقولات عندهم في أمثال هذه الأغراض وهي أخبـار موقوفـة عليهم ... وتساهل المفسرون في مثـل ذلك وملأوا كتب التفسير بهذه المنقولات وأصلها كلها كما قلنا عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية ولا تحقيق عندهم » .[1]

وهذه التهمة التي كشف الستار عنها ابن خلدون تطورت بعد ذلك عند علماء الدين في العصر الحديث وأصبحوا يحملون كل ما جاء بالتفسير من أخبار محالة إلى وهب بن منبه وزميله كعب الاحبـــار وقد اصطلحوا على تسميتها باسم « الاسرائيليات » معتمدين في ذلك على كتاب نسبه حاجي خليفة في كشف الظنون الى وهب بن منبه بعنوان « الاسرائيليات » ونجد « هو ريفتيش » يتحرى نسبة هذا الكتاب فيتوصل إلى أن حاجي خليفة قد نحل تسمية الكتاب

(١) وقد طبع كتاب عبيد بن شرية في آخر كتاب التيجان ، وقد قدم للطبعة مركز الدراسات اليمني الدكتور عبد العزيز المقالح . (محمد حسين)

من جملة أوردها ياقوت الحموي « معجم البلدان » تقول أن وهبا « كثير النقل من الكتب القديمة المعروفة بالاسرائيليات » .

ولنا ان نرد على اولئك الذين يحملون يهود اليمن تهمة تشويه التفسير ان هناك كثيراً من علماء التفسير اتوا بعدهم وتخصصوا في شرح القرآن عن طريق القصص حتى ان العلامـة ابو الفرج ابن الجوزي المتوفي سنة ٤٩٧ هـ رد على قصاص عزه بثلاثة كتب .

وإذا تجاوزنا هذه التهمة التي ارتبطت بوهب بن منبه فان هناك جماعـة من مترجميه يحسنون الظن بـه فالمؤرخ ابو نعيم الأصفهاني يعده من ضمن المتصوفة ويترجم له في كتابه « حلية الأولياء » في العديد من الصفحات .. ويراه الذهبي الذي اشتهر بنقده اللاذع بأنه صادق الأحلام وانه لبث أربعين سنة لم يسب شيئاً فيه الروح ولبث عشرين سنة لم يجعـل بين العشاء والصبح وضوءاً ولبث سنة لم يرقد على فراش . (لا علاقة لزهده وورعه بما يرويه ، فإن العلماء يحتاطون من الزهاد أكثر من غيرهم فيما يروونه لغفلتهم وسلامة نياتهم) محمد حسين

والذي يهمنا هنا هو كتابه « التيجان في ملوك حمير » وهو اثر فني فريـد اعتبره الباحث المعاصر فاروق خورشيد اثراً قصصياً قديماً نادراً وجعله منطلقاً للقصص العربي في كتابه « الرواية العربية » ولم يكن هذا الكتاب معروفـاً قبل اربعين سنة وقـد تجاهل ذكره هورفيتش في كتابـه « المغازي الأولى ومؤلفوها » وقد اكتشفه المستشرق الالمـاني كرنكوف سنة ١٩٢٤ م و كتب عنه مقالا مطولا في مجلة الثقافة الاسلامية وقد احاط نسبة هذا الكتاب بهالة من الشكوك ويرى ان نسبته الحقيقية هي الى عبد الملك بن هشام الذي تصرف في نص وهب بن منبه وادخل عليه كثيراً من الاضافات .

والكتاب يدور حول اخبار ملوك حمير وهو على منوال كتاب سلفه عبيد بن شريه[1] من حيث الأسلوب والطريقـة التي عالج بها موضوعه وهي تلك التي تتناول الأشياء من الناحيـة القصصية حيث يجد فيها الخيال جانباً كبيراً

وللكتاب دراسة جيدة في مؤلف الدكتور حسين نصار « نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي » . .

اما بقية اعلام هذا الفن فهم كثيرون وقد نبغ فيه من أهل القرن الثاني جماعة من المؤرخين خصصوا اليمن حيزاً من كتبهم وعلى رأسهم هشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفي سنة ٢٠٦ هـ وتنسب له قائمة من الكتب بلغت مائة وخمسين كتاباً منها ما يتصل باليمن وبيوتات اليمن وملوك كندة وغيرها من الكتب التي لم يبق منها سوى أسمائها .

على ان كتب الاخباريات لم تكن سمة من سمات القرون الأولى الاسلامية فقد شهدت فترة ما بعد القرن الثالث نخبة من هؤلاء الاخباريين أمثال عبدالملك ابن قريب الأصمعي المتوفي ٨٢٨ م الذي ينسب له كتاب تاريخ ملوك العرب الأولين . ومن المؤلفين المجهولين مؤلف كتاب « اسرار السير » ومؤلف كتاب « الاكليل الجامع لاخبار كثير من العرب ووقائعها وأشعارها » ومؤلف كتاب « الفاصل بين الحق والباطل في مفاخرة بني قحطان » وكلها كتب مجهولة المؤلفين ونجد من سمات تلك الروح « الاخبارية » المفرطة في الخيال عند ابن الوشاء في كتابه وصايا الملوك وابناء الملوك من ابناء قحطان ، ونشوان بن سعيد الحميري في شرح القصيدة الحميرية ، والحجوري « القرن السابع » في « روضة الأخبار وكنز الأسرار » . وكل هؤلاء يجمعهم طابع واحد هو الجانب القصصي الذي تختفي داخل طياته كثير من المعلومات التاريخية التي يستلزم وجودها في كتب هذا الفن .

وقد شجعت مزايدات هؤلاء المؤرخين بعض القصاص من أهل القرون المتأخرة ان ينسجوا على منوالها قصصاً لا تستند الى الحقيقة في شيء ككتاب « سيرة سيف بن ذي يزن » لابي المعالي وقصص البكري « القرن السابع » كقصة « رأس الغول أو فتوح اليمن » وقصة « سيرة الامام وفتحه لحصون الهضام السبعة » وغيرها .

اما ابن خلدون فقد تنبه إلى مـــا حيك حول التاريخ اليمني من أساطير ووجدناه ينقد بعضها في كتابه « المقدمــة » يقول عند نقده تمويهات المؤرخين .

« وابعد من ذلك واغرق في الوهم مـــا يتناقله المفسرون في تفسير سورة الفجر في قوله تعالى « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد»فيجعلون لفظة ارم اسماً لمدينة وصفت انهـا ذات عماد أي اساطين وينقلون انه لما خلص الملك الى شداد وسمع وصف الجنة فقال لابنين مثلها فبنى مدينة في صحارى عدن في مدة ثلاثمائــة سنة وكان عمره تسعمائة سنة وانها مدينة عظيمة قصورها من الذهب واساطينها من الزبرجد والياقوت » ... وينتهي إلى نقد هذه الأسطورة فيقول . هي حكاية أشبه بالاقاصيص الموضوعـــة التي هي أقرب إلى الكذب المنقول في عـداد المضحكات .... وكذلك ينقد اسطورة غزو اليمن للصـين واقاصي المغرب العربي .

إذا كنا قد استعرضنا فيما سبق بعض العناوين والاسماء لكتب وشخصيات وصمناها بطابع الأسطورة والبعد عن الحقيقة التاريخية اللازم توفرها في كتب هذا المجال . فما ذاك الا لما قرنوا به كتاباتهم من خيـالات لا يقبلها العقـل بأي حال من الأحوال ولعلنا نجـد في عصورهم الأولى المفرطـة في الغموض والتعقيد سبباً لذلك المسلك .

وقد آن لنا ان نتخطى هــذه المرحلة لنبدأ في دراسة المرحلة التي تليها وهي التي نصطلح على تسميتها بمرحلة النضوج وهي تلك الكتب التي يقف فيهـــا الباحث على طابع السرد التاريخي المجرد عن كل عوامـل المبالغة والافراط في الخيال وكانت هذه الكتب قد تأخر ظهورها ردحاً من الزمن كان خلالها الفكر اليمني غامض الهوية . ويصعب الوقوف على مؤرخ معين نجعله البداية لعصر النضوج في كتابة التاريخ اليمني لعدم تكامل الرؤيــة فيما يتعلق بهذا التراث . الا اننا سوف نجعل من المؤرخ اليمني الحسن بن احمد الهمداني المتوفي ٣٣٤ هـ منطلقاً لظهور الكتابـــة المنهجية معتمدين في ذلك على جزء مفقود من أجزاء

الاكليل العشرة . يقول عنه انـه خصصه لنقد الأساطير التي حيكت حول التاريخ اليمني ولا يستبعد على الرجل ذلك المسلك لما تميز عله من مقدرات عقلية خارقة تجعله أحد فلاسفة العرب القلائل في العصور الأولى وكان المؤرخ ابن القوطي يعده من الحكماء ويترجم له في كتابه « اخبار الحكماء » وهكذا كان الهمداني اقدر من ينقد تمويهات المؤرخين من غيره وقد طبق ذلك في كتابـه الرائع « الاكليل » الذي يعد ذروة المراجع اليمنية ففيه يطالعنا بأسلوب تاريخي جيد ، همه الأول هو استقصاء المعلومات التاريخية سواء كان مصدرها اسلامياً أم جاهلياً . على اننا قد نصطدم ببعض الوقائع الخيالية أتت من المصدر الذي ينقل منه . وفي الواقع انه لو أراد ان يكتب التاريخ الجاهلي بعيـداً عن طابع الخرافة لما استطاع ان يكتب شيئاً . ولولا ان ذخيرته من النقوش الحميرية كانت غنية لأتى كتابه الإكليل اشبه بكتـاب « التيجان في ملوك حمير » لوهب بن منبه .

هذا هو الهمداني الذي اردنا منه رجـل التاريخ الواقعي وسوف نجد هوة شاسعة بينه وبين من أتى من بعده من المؤرخين في اليمن من حيث التخصص فالرجل مؤرخ لبلده في عصر ما قبل الاسلام وكأنه غارق في امجاده القديمة ولم يول التاريخ الاسلامي ادنى انتباه وهو الأمر الذي اذكى عليه حفيظة المحافظين من المسلمين ونقدهم اللاذع له مما ادى الى سجنه لهذا السبب أو لغيره . ويذكرني هذا بذلك النقد القاسي الذي اخذ به السخاوي معاصره المقريزي حين وجد كل كتاباته العديدة لا تبحث في علم من علوم الإسلام المعترف بها .

●

وقد كان المؤرخون الذين أتوا من بعد الهمداني رجالاً اتقياء يرون في التاريخ عظة واحياءاً لامجادهم الاسلاميـة . وكان التعلق بالشيوخ هو الذي خلق لنا فن التراجم الذي أصبح جزءاً كبيراً من التاريخ والمؤرخ الكبير ترجمة العالم لا لشيء

إلا ليتشبه به في سلوكه الحميد . وقـــد اقترنت كتابة التاريخ في اليمن أساساً بالترجمة التي أصبحت مختلطة بكل الأعمال التاريخية حتى انه يندر وجود كتاب في التاريخ خال من التراجــم . وأنت تجـــد في أول أثر تاريخي عن اليمن بعد الاسلام وهو كتاب « سيرة الامام الهادي » عبارة عن ترجمة كبيرة لهـذا الرجـل وان كان يتخلل ذلك ذكر حروب الرجـل ومعاركه في اليمن التي لا تنفصل عن تاريخ الاحداث .

ويطالع الباحث في انتاج المؤرخين اليمنيين تغلغل الطابع الديني وهو الذي يدين له بوجوده . ومع انه لم تنشط مدارس ثابتة اسلاميـــة في اليمن كتلك المدرسة التي ابتدعها رجال الحديث في بغداد وسوريا ومصر او تلك التي خصصت للتفسير والفقه وغيرهما من العلوم الاسلامية لعدم استقرار مذهب معين في اليمن بصورة تجعله يتفرغ لوضع المدارس بصفة متكاملة . فاننا يمكن أن نجعل القرون المتأخرة « عصر ما بعد القرن السادس » بداية لذلك الاستقرار الذي سوف نجد فيه المدارس العلمية قد أخذت تتضح معالمها وذلك بعد انهـــاء مذهب اليمن «المذهب الزيدي» من ترسيخ قواعده بحيث لم يعد يكترث بخصومه من أصحاب المذاهب الأخرى .

•

ومنذ تلك المدة « القرن السادس » أخذت المؤلفات اليمنية تظهر في انتظام وكثرة . ومنها نستطيع ان نخلق مدارس ثابتـــة في الحديث والتفسير والفقه والتاريخ والأدب وعلى سبيل المثـال ظهر من كتب الحديث في اليمن مؤلفـات مدروسة معترف بها ككتاب « امالي احمد بن عيسى » للمرادي و كتاب «أصول الأحكام » للامام احمد بن سيمان المتوفي سنة ٥٦٦ هـ وهو كتاب « شفاء الأوام من أحاديث الأحكام » للامير الحسين بن بدر الدين المتوفي سنة ٦٦٢ هـ و كتاب « الاعتصام » للقاسم بن محمد « ونيـــل الأوطار » للشوكاني « وسبل السلام » للأمير وغيره .

وفي الفقه كتـــاب « الانتصار » للامام يحيى بن حمزة المتوفي ٦١٤ هـ وكتـاب « الحجة البيضاء » لعبد الله بن زيـد العنسي المتوفي ٦٦٧ هـ وكتاب « ياقوتة الغياصة » لمحمد حنش المتوفي ٧١٩ هـ والازهار للمهدي المتوفي ٨٤٠ هـ والتذكرة للنحوي والبيان لابن مظفر والعروة الوثقى للحسين بن يحيى الديلمي وغيرها .

وفي التفسير الجوهر الشفاف لعبـد الله بن حمزة والبيان لابن مظفر وعقود العقيان والبرهان للديلمي وغيره .

وفي الأدب واللغة كتاب « الحور العين » و« شمس العلوم » لنشوان الحميري وكتاب « الوشى المرقوم » للحسيني وكتاب شرح كافية ابن الحاجب لعز الدين المفتي وغيره .

●

وكان من اللازم ظهور المدرسة التاريخيـــة بعد ظهور تلك المدارس وهي مدرسة اسلامية بحتة تختلف اختلافاً كلياً عن طريقة الهمداني ذات الصبغة العلمية فالمؤرخون اليمنيون حين كتبوا مؤلفاتهم كانوا يهدفون في أغلب الأحيان الى حفظ الاسناد وهو فن ولع به كل المتأخرين من أهل البلاد الاسلامية حتى انـه كان يعد في نظرهم الرصيد الثقافي الذي يفاخرون به الآخرين وقد كان لتذبذب الاسناد في اليمن بين طريق الشيعة والسنة أثر في تنوع المصادر وتفرعها حتى أننا نجد عالماً من كبار علماء الشيعة في اليمن هو عبد الله بن محمد النجري المتوفي سنة ٨٧٧ هـ يزور مصر قلعة السنية ويروي سائر كتبها لأهل بلده . ومن ناحية أخرى فان الرحلات المتواصلة بين العراق واليمن ومن أشهرها رحلة العلامـــة جعفر بن احمد بن عبد السلام المتوفي ٥٧٣ مثلاً آخر ساعد على تطعيم الثقافة في البلاد والتعرف على تراث المعتزلة والشيعة في تلك البلاد ولولا هذا الانفتاح الثقافي التام لما رأينا عالماً يمنياً كبيراً « العلامة محمد بن ابراهيم الوزير » يعلن نظريته

الشهيرة في نقد المذاهب الاسلامية جميعها والتنبيه على مواضع ناصعة منها بغض النظر عن نوعية تلك المذاهب .

وقد ساعد هذا الانفتاح أيضاً على أن تتحرر الكتابة التاريخية من ذلك النمط الذي ظل سائداً وهو نمط المفاخرات القبلية بما فيها من مزايدات وخرافة إلى طريق الواقعية التي تجعل من الوازع الديني عاصماً لها من نزعات الأهواء والمغالاة وكان الكذب على الآخرين في نظر المسلم معناه أن تأكل لحم أخيك ميتاً . ومن هنا رأيناهم كثيراً ما يستعملون لفظة « الله أعلم » التي تعني التوقف عن التعرض للأمور المجهولة والتي وردت بصفة غير مقطوع فيها .

•

ولا بد من الرجوع إلى المناهج المتبعة عند المسلمين في معالجتهم العلمية لنعرف كثيراً من الاسرار التي تناولها اليمنيون في شتى مناحي الثقافة بما فيها الجانب التاريخي وقد كانت كتابة التاريخ كما صورتها المخطوطات ظلالاً تمتد إلى شتى العلوم الدينية والأدبية على اعتبار انه مصور للحضارة . وناقل لمعالمها مهما كانت نوعيتها . فانت مثلاً تجد التاريخ قد تناول علم الحديث في الباب المعروف فيه باسم « نقد الرجال أو الجرح والتعديل » وفي التفسير جاء في باب « معرفة أسباب النزول » وفي الفقه دخل من زاوية « أسباب الأحكام التي أثرت على الرسول وخلفائه وفي تطور نظريات العلماء الفقهية وغيرها » وفي اللغة والأدب نلمح بصمات التاريخ فيها من خلال تلك المشاحنات التي كانت تجري بين رجال الفن وتصور فقرات من تاريخه . على أن التاريخ تناول كل هذه العلوم من زاوية أخرى هي أقرب إلى طبيعته وهي تلك التي اصطلح على تسميتها باسم « الطبقات » فأنت تجد لكل علم طبقاته تؤرخ لأعلامه وتطور آرائهم ففي الحديث ظهر كتاب « التاريخ » للبخاري المشهور بكثرة أجزائه وكتب الذهبي والعسقلاني وغيرهما . وفي التفسير نجد كتاب « طبقات المفسرين » للداودي المتوفي ٩٤١ هـ وكذلك كتاب « السيوطي » المسمى بنفس الاسم . وفي الفقه

أرخ العلماء كل لمذهبه فالشافعية لهم طبقات مشهورة للسبكي وابن عاصم وغيرهما والزيــــدية كتب عن طبقاتهم المؤرخ يحيى بن الحسين وابراهيم بن القاسم المتوفي ١١٥٣ والحنفية كتب عنهم عبد القادر بن أبي الوفاء المتوفي ٧٧٥ هـ والمالكيــة لابن فرحون المتوفي ٧٩٩ هـ .

•

أما في اللغة والأدب فيمكن الرجوع إلى طبقات النحاة للسيرافي والزبيدي الاندلسي والسيوطي وكذلك الرجوع إلى مجاميع الأدباء التي تؤرخ لهم ولأدبهم ككتاب يتيمة الدهر للثعالبي وذيوله .

هذه نماذج متنوعة من الاسماء تصور لنا المواضيع التي عالجها التاريخ في مجال الترجمة وهي تشكل لب هذا الفن وأساسه فلا بأس إذا قدمنا الحديث عنها على سائر فنون التاريخ الأخرى . فهي ذات ثروة كبيرة من الكتب وصاحبة الفضل الأول على كتب الحوليات ولأن التاريخ في مضمونه عبارة عن تصوير لتحركات الانسان فلا غرو إذا رأينا الترجمة متغلغلة في كل ما كتب فيه .

وقد كان هدف كتاب الترجمة المسلمين هو حفظ الاسناد – كما قلنا سابقاً – وهو عبارة عن تسلسل تلقي الشيوخ عن السابقين لهم حتى يصل هذا التسلسل إلى صاحب العلم المتلقى عنه. وقد كانت الترجمة في خلاصتها تعريفاً بمجال الشيوخ المذكورين في سلسلة الاسناد ثم تطورت إلى معاجـــم مستقلة تؤرخ للعلماء على كافة تخصصاتهم ومنهم رجال الدين والأدب والفن والسياسة وغيرهم. ومن يتأمل مثلاً – موسوعة ابن خلكان يجدها قد شملت كل أصحاب تلك التخصصات . وهم يعنون في كتابة الترجمة أولاً باسماء شيوخ المترجم له الذين تلقى العلم عنهم ثم تاريخه الخاص وايراد اسماء مؤلفاته وضبط كنيته أو لقبه .. وهكذا .

•

وإذا نظرنا إلى كتابة الترجمة عند أهـــل اليمن وجدناها لا تخرج عن ذلك

التقليد المتبع عند المؤرخين المسلمين وهناك تراث حافل من كتب التراجم بعضها أتى متخصصاً في ترجمة فرد وأفراد من أصحاب فن معين أو مجاميع عامة اهتمت بالترجمة لشتى فئات المجتمع من علماء وأدباء وحكام .

على انه يحق لنا أن نضع تصنيفاً معيناً لتلك الانماط التي عرفها التاريخ اليمني في مجال الترجمة وسوف نجدها في عمومها على ثلاثة انماط .

النمط الأول : كتب عامة في التراجم يجد فيها القارىء شتى فئات المجتمع من أصحاب الشهرة . وقد برز في الكتابة فيها من أهل اليمن جماعة من المؤرخين يأتي على رأسهم المؤرخ يوسف بن يعقوب الجندي المعروف بالبهاء المتوفي سنة ٧٣٢ هـ والمؤرخ احمد بن صالح بن أبي الرجال المتوفي سنة ١٠٩٢ وهما ابرز الشخصيات التي كتبت التراجم من حيث ضخامة ما خلفوه من انتاج ومن بعدهما تأتي فئات أقل شأناً منهم استطاعوا أن ينجزوا بعض الأعمال في مجال الترجمة كالمؤرخ عبد الله بن أسعد اليافعي المتوفي ٧٦٨ هـ والمؤرخ الخزرجي والمؤرخ البريهي والحسين بن عبد الرحمن الأهدل المتوفي سنة ٨٥٥ هـ وغيرهم من الذين سوف نتحدث عنهم بعد حديثنا عن الشخصيتين الأوليتين :

المؤرخ محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي

وهو أحد كبار المؤرخين كان قد ولي بعدن أمر الحسبة . توفي سنة ٧٣٢ هـ ولم نجد من المؤرخين من اهتم بترجمته فلا نعرف عنه شيئاً وكتابه السلوك في طبقات العلماء والملوك من أوسع الكتب اليمنية القديمة في التراجم وهو مرتب حسب التسلسل الزمني منهم ثم عصر التابعين ثم عصر من بعدهم وهكذا وحتى سنة ٧٣٠ هـ. وقد احتذى في كتابته أولاً مؤلف ابن سمره الجندي من حيث اهتمامه بتراجم الشافعية فقط ولكن مؤرخنا خرج من هذه القاعدة وترجم فيه للعديدين من الزيدية وأهل المذاهب الأخرى باليمن . الجعدي

المؤرخ احمد بن صالح بن أبي الرجال

ولد سنة ١٠٢٩ هـ في جهة الأهنوم ودرس على جماعـــة من العلماء منهم ابراهيم بن محمد المؤيدي والعلامة أحمد بن سعد الدين المسوري وابراهيم بن يحيى السحولي وغيرهم ورحـل إلى مكة سنة ١٠٥٣ واستجاز من شيوخها ويصفـه المؤرخ المحبي بقوله « كان مـن أفراد اليمن ذا أدب وسلاسة لفظ وحسن تأنق ولطافة طبع من سراة الأدباء والفضلاء بصنعاء ، طلق الوجه حسن الشمايـل حلقت عليـه الدروس بمدينة صنعاء وشهاره وصعده وله اليد الطولى في المعاني والتفسير » .

وله بجانب كتابـــه الشهير « مطلع البدور » الآتي الذكر كتاب الموازين الرجيحة للبراهين الصريحة . « والهدايـة إلى ما يجب » « وتذكرة القلوب التي بالصدور في حياة الأجسام التي بالقبور والجواب الشافي الصدى في الرد على الضمدي وبغيـة الطالب وسؤاله واعلام الموالي بكلام ساداتـه الموالي « منه مخطوطة بمكتبة المتحف البريطاني » ومجالس التفهم بتراجم تراجمة التفسير الاعلام وتيسير الشريعة لوارد الشريعة وغيرها توفي سنة ١٠٩٢ هـ .

وكتابه «مطلع البدور ومجمع البحور» من أوسع الكتب التي عنيت بالتراجم وقد اشتمل على ترجمة أكثر من ألف وثلاثمائة شخص من أهل اليمن رتبـه على حروف المعجم وفيه نجد استقصاءاً دقيقاً لحال المترجم مما دفع الشوكاني إلى القول عن كتابه هذا « لولا كال عناية صاحبه واتساع اطلاعه لما تيسر له جمع ذلك الكتاب » .

ومن كتاب الترجمة العامة في اليمن أيضاً المؤرخ عبد الله بن أسعد اليافعي المتوفي سنة ٨٦٨ هـ صاحب كتاب « مرآة الزمان وعبرة اليقظان » ومؤلف كبير في التراجم طبع في الهند منذ ستين سنة إلا أن نصيب اليمن منه ضعيف ولا نكاد أن نلتقي فيه من خلال الحشد الكبير لتراجم العلماء في البلاد الاسلاميـة

بترجمة واحدة ليمني سوى ما تضمنه ذلك الملحق المثبوت في الجزء الرابع منه في تراجم الصوفية باليمن وعبارة المؤلف في كتابه هذا تتميز بالسقوط حتى انه لا يكاد يفهم منها قصده .

ومن المؤرخين أيضاً المؤرخ علي بن الحسن الخزرجي المتوفي سنة ٨١٢ هـ وله في التراجم كتاب طراز اعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن وهو مقسم حسب العصور ككتاب « السلوك » . والمؤرخ **الحسين بن عبد الرحمن الاهدل** المتوفي سنة ٨٥٥ هـ له كتاب في التراجم سمي تحفة بني الزمن في تاريخ سادات اليمن اختصره من كتاب الجندي وزاد عليه ما فاته . ومن كتاب التراجم العامة المؤرخ البريهي اليمني ولا أعرف عنه شيئاً ولعله أحد بني البريهي العديدين الوارد ذكرهم في كتاب الضوء اللامع وله كتاب في التراجم جعله استكمالاً لكتاب طبقات الشافعية لابن سمره منه مخطوطة في احدى المكاتب باليمن ومن المؤرخين اليمنيين المؤرخ أحمد بن أحمد قاطن المتوفي ١١٩٩ وقد ترك عدة كتب في هذا المجال منها تحفة الأخوان ترجم فيه لجماعة من شيوخه وكتاب اتحاف الأحباب بدمية القصر الناعتة لمحاسن بعض أهل العصر وقد ألفه وهو بسجنه بقصر صنعاء ومن بعده يأتي العلامة **محمد بن علي الشوكاني** المتوفي سنة ١٢٥٠ هـ في كتابه « البدر الطالع لمحاسن بعد القرن السابع » . وقد جعله ذيلاً على كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان وهو كتاب شامل لتراجم أهل اليمن على اختلاف تخصصاتهم وبعض من أهل البلاد الاسلامية . ويطالعنا مؤلفه على خلاف عاداته - باحث غير مدقق فهو لا يستقصي حال المترجم ويكتفي بايراد بعض المعلومات عنه مع ضبط وفاته وكثيراً ما يدخل في الترجمة بأمور لا تتعلق بالترجمة .

ولعل آخر من عرفهم التراث اليمني في مجال الترجمة العامة المؤرخ أحمد بن عبد الله الجنداري المتوفي سنة ١٣٣٧ وكتابه « الجامع الوجيز بوفيات العلماء ذوي التبريز » سجل حافل لاعلام اليمن منذ أول الإسلام إلى عصره .

هذه أهم ملامح النمط الأول من كتابة الترجمة في اليمن ولا شك أن التوسع في الحديث عنه ليس من مجاله في هذا النطاق الضيق .

●

النمط الثاني : مجاميع في التراجم متخصصة وسنرجىء الحديث عنها في حديثنا عن مرحلة التخصص .

النمط الثالث : كتب المناقب والسير والتراجم الذاتية . وهي تتفق في عمومها على انها كتب مفصلة تدرس ترجمة شخص معين من رجال الدين أو السياسة أو الأدب .

كتب المناقب : وقد كان هذا النوع حكراً على طائفة الصوفية . والمنقبة في معناها اللغوي هي الخصلة الحميدة ولذا فكتب المناقب هي تصوير للصفات الحميدة التي يتمتع بها الصوفي وقد برز في هذا الفن بعض المؤرخين اليمنيين لعل أقدمهم هو المؤرخ يحيى بن المهدي بن القاسم بن المطهر اليمني من أهل القرن الثامن الهجري له كتاب ضخم في ترجمة الصوفي اليمني الكبير ابراهيم بن أحمد الكينعي المتوفي سنة ٧٩٣ هـ بعنوان صلة الاخوان في حلية بركة أهل الزمان . وهو مقسم على عشرة أبواب يمكن أن نعدها النهج المتبع في كتب المناقب عند أهل اليمن .

الباب الأول : في نشأته .
« الثاني : ابتداء درسه .
« الثالث : في غربته ورياضته .
« الرابع : في زهده .
« الخامس : في أوراده .
« السادس : في مكارم أخلاقه .

« السابع : في صدق عبادته « أي رؤياه » .
« الثامن : في كراماته .
« التاسع : في مجاورته البيت العتيق.
« العاشر : في ادعيته وحكمه .

ومن هذا الكتاب مخطوطة بمكتبة الامبروزيانا بايطاليا وبرز بعد المطهر من كتاب المناقب ابن الامام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى الحسن وله في مناقب والده كتاب أسماه كنز الحكماء وروضة العلماء . ولم نشأ أن نضعه مع سير الأئمة ذات الطابع السياسي لعدم اهتمام مؤلفه بهذه الناحية إلا في فصل واحد قصير وهو الفصل الذي أرخ فيه لحياة والده . ومع ذلك سنجده يختلف من حيث التقسيم عن سائر كتب المناقب . واليك فهرست فصوله :

الفصل الأول : في خطبه ومواعظه .
« الثاني : في نظمه .
« الثالث : في رسائله ووصيته .
« الرابع : في ترجمته .

ومما له دخل بكتب المناقب مؤلف المؤرخ اليمني أحمد بن أحمد الشرجي المتوفي سنة ٨٩٣هـ « طبقات الخواص » الذي أرخ فيه لجمهور من رجال التصوف باليمن وسوف نرجىء الحديث عنه لما بعد .

أما بعد القرن العاشر فقد ظهر سيل من كتب المناقب سوف نجمل بعضها في هذا السرد . منها كتاب « بلوغ الظفر والمغانم في مناقب الشيخ أبو بكر بن سالم » للمؤرخ محمد بن عبد الرحمن باجمال المتوفي سنة ١٠١٦ هـ وهو في مناقب شيخه أحد متصوفة الجنوب رأيت نسخة منه في بعض المكاتب الشخصية . وكتاب نشر العبير بفضائل علامة العصر النحرير للمؤرخ عبد الله بن علي الوزير المتوفي سنة ١١٤٧ في ترجمة شيخه علي البرطي وكتاب المنهج الأعدل في مناقب

الشيخ علي الأهدل لمحمد بن أحمد الأهدل وهو مقسم على أربعة فصول :

الفصل الأول : في نسبه .

« الثاني : في بدايته .

« الثالث : في كراماته .

« الرابع : في أولاده .

ومن كتب المناقب كتاب « قرة العين بمناقب الحبيب أحمد بن زين » لمحمد بن عمر بن سميط أرخ فيه لحياة الصوفي محمد بن زين الحبشي المتوفي سنة ١١٤٥ هـ وهو أحد دراويش الصوفية في الجنوب .

وكتاب فتح الرحمن في مناقب السيد عبـــد الرحمن سعد الدين بن عبد الله الزبيدي ضمنه ترجمة شيخه عبد الرحمن بن سليمان الأهدل المتوفي سنة ١٢٥٠ . وهذه الكتب وغيرهـــا مما لم نشأ التطويل بذكرها تتفق في عيب واحد وهو ضعفها من الناحية التاريخية وركاكة الأسلوب حتى انك تجد بعضها مكتوبة باللغة العامية .

كتب السِيَر : وهي عند أهل اليمن الترجمة السياسية للإمام أو الملك وكأنهم اقتبسوا هذا الاسم من « سيرة الرسول » المعنون به كتاب ابن هشام الشهير على اعتبار ان الحاكم هو خليفة للرسول ﷺ والمتشبه بأفعاله . ونجد من هذه الكتب سلسلة يترابط فيها التاريخ من عصر الامام الهادي يحيى بن الحسين « القرن الثالث » إلى العصر الحديث ولا ندري كيف اهملت الكتب كمراجع أساسية للتاريخ اليمني مع انها مراجع معاصرة للأحداث وتتميز بتوسع لا نجده في كتب الحوليات . ولم يكن عمل أهل اليمن في كتابـة السير بدعاً فهناك سير كتبت لسلاطين وامراء حكموا البلاد العربية والاسلامية ككتاب ابن الداية في « سيرة أحمد بن طولون » وكتاب محيي الدين بن عبد الظاهر في سيرة الملك المنصور قلاوون المتوفي سنة ٦٨٩ ويسمى كتابه « تشريف العصور » وقد نشره مؤخراً الدكتور مراد كامل . إلا أننا نستطيع أن نحتفظ لأهل اليمن بالريادة في هـــذا

الشأن لضخامة مـــا كتبوه في سير حكامهم . فمنذ القرن الثالث الهجري والمؤرخون في اليمن ... يعنون سير حكامهم . وكان صاحب الفضل في هـذا الفن هو المؤرخ علي بن محمد العـلوي العباسي الذي ألف كتاب « خبر الامـام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين وانتشار مذهب الزيدية باليمن » عن روايـة محمد بن سليمان الكوفي وغيره وهو تاريخ لمعاركه في اليمن ومجادلته لأهل المذاهب ومن بعده ظهر المؤرخ عبـد الله بن محمد الهمداني فكتب سيرة « الامام الناصر أحمد بن يحيى بن الحسين» المتوفي سنة ٣٢٥ هـ وهذا الكتاب مفقود ومن الغريب انه ينقل عنه المؤرخ المعاصر مجد الدين المؤيدي في كتابه التحف ولعله نقـــل بواسطة المؤرخ حميد الشهيد الذي استوعب أكثر ما جاء فيه . وقد وضع المؤرخ العباسي ومن بعده الهمداني الأسس التي سار عليهـا كل من كتب في السير التي يغلب عليها الجانب السياسي وتقصي الأحداث حتى يختفي الحديث عن صاحب السيرة التي كتبت عنه إلا من خلال مشاركاته في المعارك والحروب ومن يتأمل مثلا – كتاب درر نحور الحور العين في سيرة الامام المنصور علي بن العبـاس يجد أن نصيب الامام المنصور من هـــذا المجلد الضخم البالغة صفحاته سبعمائة صفحة « قطع كبير » لا يتجاوز من هذا الصفحـة والنصف فقط والبقية تاريخ لاحداث عصره .

ومن حسن الحظ انه بقيت إلى الآن مجلدات ضخمة في السير نتناولها هنـا حسب التسلسل الزمني . ففي القرن الرابع ألف المؤرخ الحسين بن أحمـــد بن يعقوب اليمني كتابه عن سيرة الامام المنصور القاسم بن علي العياني المتوفي سنة ٣٩٣ هـ ومن هذا الكتاب نسخة بمكتبـة المتحف البريطاني وأتى بعده المؤرخ سليمان الثقفي فكتب عن الامـام المتوكل سليمان بن أحمد بن سليمان المتوفي سنة ٥٦٦ سيرة ضخمة ينقل عنها المؤرخ حميـــد الشهيد ثم المؤرخ علي بن نشوان الحميري له سيرة الامام المنصور بالله عبـد الله بن حمـزة المتوفي سنة ٦١٤ هـ في أربعة مجلدات نجـد منها نقولات في كتاب حميـد الشهيد الآتي الذكر . ومن كتب السيرة كتاب « سيرة الامام المهدي أحمد بن الحسين المتوفي سنة ٦٥٦ »

لشرف الدين يحيى بن قاسم بن حمزة ومنها نسخ بمكتبة الجامع والامبروزيانا .
وفي القرن الثامن كتب العلامة الشهير الهادي بن ابراهيم الوزير المتوفي سنة ٨٢٢ كتابه في سيرة الامـام الناصر صلاح الدين بن محمد المتوفي سنة ٧٩٣ هـ المسمى «كاشفة الغمة في الذب عن سيرة امام الأمة » وله كتاب آخر عنه يسمى « كريمة العناصر في سيرة الامام الناصر » وفي هذه الأجواء كتب أحد أعيـــان دولة السلطان المظفر الرسولي المتوفي سنة ٦٩٤ كتـــاب « ســيرة المظفر » كذلك الكتـــاب الذي ألفه يحيى بن علي الحبشي اليمني ذيلاً على كتاب الافادة وكتاب المؤرخ علي بن محمد العابد الصنعاني المتوفي ١١٨٩ هـ ولم نجد من يحل محله حتى ظهر كتاب حميد المحلى الشهيد المتوفي سنة ٦٥٢ هـ « الحدائق الوردية في مناقب ائمة الزيدية » وهو كتاب جامع لسير الحكام حتى عصره وقد رجع فيه إلى نصوص هي الآن في حكم المفقودة ككتاب « سيرة الامام المرتضى محمد بن يحيى بن الحسين » وكتاب تاريخ مسلم اللحجي وغيره . وتأتي بعد كتاب « الحدائق الوردية » من مجاميع سير الحكام من الائمة كتب شروح البسامة وهي عديدة متنوعة.

الحِبْسِي بالسين المهملة

* بقيت مرحلة التخصص :

ابن المقري

فقيه اليمن وشاعرها

شهد اليمن خلال القرن الثامن الهجري عهد رخاء وازدهار لم يعرفه من قبل في عصر من عصوره الاسلامية ولعل ذلك يعود إلى حسن سياسة الملوك من بني رسول [illegible] واستمالتهم الشعب بالملاينة والسلم . وكان من نتيجـــة ذلك تطور النهضة العلمية والأدبية . وقد رأينا بعض ملامحها في الأعمال العلمية التي كتبها سلاطين آل رسول أنفسهم[1] . وفي الوفادات التي وصلت إلى اليمن ومن أهمها قدوم العلامة الكبير مجد الدين الشيرازي[1] ومكوثه فيها إلى أن توفي .

وكان ابن المقري صورة من ذلك العصر المشرق . بقي لنـــا بعض جوانبها في الآثار الأدبية التي كتبها . وتعود شهرتـــه عند القدماء إلى انه صاحب ذلك النمط العجيب من التأليف الذي يعتمد أساساً على الذكاء الخارق والدراية اللغوية التامة كما سنفصله فيما بعد .

مولده :

ولد العلامة اسماعيـــل بن أبي بكر بن عبد الله المقري في جمادي الأول سنة

---

١ ـ من المؤلفات التي تركها سلاطين آل رسول والتي لا تزال موجودة إلى الان كتـــاب « المعتمد في الادوية المفردة » للملك الاشرف «بغية ذوي الهمم في الانساب» للملك الافضل «العطايا السنية » للملك الافضل أيضاً «والمغني في البيطرة» للملك الاشرف .

٧٥٥ هـ ١٣٥٣م كما ينقله عنه تلميذه ابن الخياط . وقد عاش حياته الأولى بمدينة « أبيات حسين » بالقرب من سردد ثم انتقل منها إلى زبيد حيث مكث بها بقية عمره . وقد أحبها وظل مخلصاً لها كما يتضح من أبيات وردت في ديوانه يقول :

سقتك من الغوادي يا زبيد	مرجعة تحس لهــا الرعود
وضاحك فيك ثغر البرق مغنا	تضاحكه الليــالي والعقود
فانك مــن سويدا كل قلب	خلقت لمن يريـد كما يريـد
ترابك عنــبر وحصاك در	وظلك في جوانبـه مديـد
وأنت كجنة الفردوس لو لم	يفت من كان يسكنك الخلود

ونعرف من ديوان شعره انه كان يتنقل إلى بلدان يمنية كمدينـة بيت الفقيه وتعز وجبلة ثم يعود منها إلى زبيد .

شيوخه :

لم يكلف السخاوي نفسه في الترجمةالتي كتبها عن ابن المقري مشقة استقصاء شيوخه واكتفى بذكر ثلاثة منهم : أولهم العلامـة الفقيه جمال الدين محمد بن عبد الله الريمي . وهو أحد علماء الدولة الرسولية الكبار يقول عنه الخزرجي انه « كان فقيهاً عارفاً محققاً مدققاً نقالاً للنصوص بارعاً في المذهب « الشافعي » له كتاب « التفقيه في شرح التنبيه » في أربعة وعشرين مجلداً وكانت له حظوة عند الملوك ، صحب الملك المجاهـــد الرسولي ثم ولده الملك الأفضل ثم الملك الأشرف وولاه قضاء الأقضيـة في المملكة اليمنية بأسرها وجمع من المال ما لا يجمعه غيره من الفقهاء البتة . توفي سنة ٧٩٢ هـ [١] .

وثانيهم : عبـد اللطيف بن أبي بكر بن أحمد بن عمر السراج الشرجي . وقد أخذ عنه في علم العربية . وله ترجمة مطولة في الضوء اللامع منها أنه « ولد

---

١ – الخزرجي : العقود اللؤلؤية . ج٢ ، ٢١٨ .

لا لو وجد السخاوي غير هؤلاء المشايخ الثلاثة لابن المقري لما تركهم . ثم إن المؤلف لم يجد غير هؤلاء الثلاثة ووقع فيما نقد فيه السخاوي ، ثم يأتي بالتخمين . (مصحح)

٧٤٧ هـ وانتشر ذكره بالبلاد وارتحل اليه الناس من سائر أنحاء اليمن وغيرها وجمع كتباً كثيرة بخطه واعتنى بضبطها واتقانها ودرس الفقه بالمدرسة الرحمانية بزبيد ثم استدعاه الملك الاشرف في جملة من فقهاء زبيد إلى مجالسه في رمضان والتمس منه شرح « ملحة الاعراب » فشرحها ثم أمره بنظم مقدمة ابن بابشاذ فنظمها أرجوزة في ألف بيت ثم نظم مختصر الحسن بن عباد واختصر « المحرر في النحو »[1] إلى آخر ما ذكر السخاوي وقد توفي سنة ٨٠٢ هـ .

وثالث هؤلاء الشيوخ العلامة : محمد بن زكريا وقد درس عليه في علم النحو ولا نعرف عنه شيئاً أكثر من اسمه ولعله جاء منقوصاً إذ لم نجد له ذكراً في مادة محمد بن زكريا من كتاب الضوء اللامع .

ويمكن أن نخمن[1] أن المقري تلقى العلم على أغلب علماء عصره من أهل اليمن ومن أشهرهم العلامة أحمد بن موسى الجلاد والعلامة أحمد بن عثمان بن بصيص والعلامة أحمد بن عبد الرحمن بن سلمة الوصابي إذ لا يستبعد أن يكون صاحبنا درس على هؤلاء لحرصه في طلب العلم.[1]

شئونه الخاصة :

سجل لنا جامع ديوانه بعض الحوادث التي كانت سبباً لنظم قصائده ومنها ما هو وثيق الصلة بحياة الشاعر . ونعرف من ذلك مقدار ما يتقاضاه من ملوك بني رسول ففي عهد الملك الأشرف كان يتحصل على « جامكيه[2] في الشهر ثلاثمائة دينار ولغلمانه في الشهر مائة دينار »[3] . وقد بلغ من احسان الملك الأشرف ما دفع صاحبنا أن يرد بعض هداياه استكثاراً .

---

١ ــ السخاوي : الضوء اللامع . ج ٤ ، ٣٢٥ .
٢ ــ الجامكية : مرتب خدام الدولة (المنجد ، ٩٨)
٣ ــ ديوان ابن المقري ص ٨٨ .

أما الملك الناصر فقد أجرى له ٨١ مداً من الطعام شهرياً . وحدث أن تغافل عن ارسالها أحد عماله « فاستورد عليه عدة أوامر شريفة[١] . وقد اكتسب شعره على مر الايام مكانة قصوى عند ملوك بني رسول . وهذا هو السلطان الظاهر بن يحيى بن اسماعيل يكافىء شاعرنا على قصيدة قالها في مدحه سنة ٨٣١ هـ بكل بيت منها ألف دينار . وأعطاه من هذه الجائزة « اثني عشر الفاً في ذلك اليوم والتزم في ذمته بالباقي »[٢] .

وهو في هذه الهبات حريص على أخذها درهماً بدرهم ولا يتساهل في ذلك . وقد ذكر جامع ديوانه[٣] انه أرسل قصيدة إلى السلطان الظاهر يذكره بهبة وعده بها ولم يسلمها له عماله .

ومع ذلك فان هذه الهبات على ضخامتها – أحياناً – لا تسد كل نفقاته وقد رأيناه يرسل قصائد عدة يطلب فيها مساعدته على بعض شئونه الخاصة كتلك القصيدة التي توسل فيها إلى السلطان الأشرف أن يعطيه بعض ما يهديه إلى أهله عند قدومه عليهم بزبيد . يقول جامع ديوانه : « لما عزم الركب السلطاني على النزول إلى زبيد وكان الشيخ « ابن المقري »وأولاده وأهله حينئذ بزبيد ولم يكن ما يهدى به لهم فكتب اليه يعلمه فأحال له بمال جزيل » . وفي موضع آخر نجده يشكر السلطان لاستجابته لطلبه في اصلاح داره الذي كاد أن يتداعى إلى السقوط .

وحياته مع أسرته يغلب عليها السعادة والحبور وقد صاهر جماعة من كبار عصره لعل أهمهم وزير السلطان الأشرف . نور الدين علي بن معيبد المتوفي سنة ٧٨٧ هـ ويقول عنه الخزرجي . « كان رجلا كاملا ذكياً حازماً جواداً وجيهاً عند السلطان محباً للعلم والعلماء حسن السياسة تولى الوزارة ست سنين وأربعة أشهر »[٤] .

---

١ و٢ و٣ – ديوان ابن المقري ص ٢٩١ و٢٨٧ و٢٩١ .
٤ – الخزرجي : العقود اللؤلؤية : ج ٢ ، ١٧٠ .

وفي قصيدة يقول مخاطباً إحدى زوجاته :

رضيتك مولاتي وارضيتني عبدا   وأمسى مملوكاً فمن يحفظ الودا   وأمسيت
فان صح لي هذا وأمسيت ملككم   فقد بلغت نفسي بك ألمن والقصدا
فقلت نعم أرضى وأهلاً ومرحبا   فما مثل هذا العبد يستاهل الردا
لك الحمد يا ربي بلغت بها المنى   لك الحمد حمداً ليس له عــدا
فلما بـــدا لي حسنها وجمالها   ولهت فلم التق من عشقها بدا
فملكتها روحي ومالي ومهجتي   وأصفيتها مني المحبـــة والودا

وينصح ولده علياً في التمسك بالاخــلاق والمحافظة على طلب العلم ، يقول :

دعوتــك يا عــلي إلى المعــالي   فان تك قد خلقت لها اجبتا
إلى عــلم تطيــع الله فيــه   على ثقــة وتعرف ما جهلتا
فان العلم أعظم مــا تسامت   له همم وأشرف مــا اكتسبتا
وخذ بعنان نفسك عن هواها   فان أرخيتــه معهــا ندمتــا

توليه بعض الأعمال :

قبــل توليه بعض الوظائف الحكومية كان قد تعاطى مهنــة التعليم ودرس أولاً بالمدرسة النظامية التي أنشأها بزبيد الطواشي نظام الدين المتوفي سنة ٧٥٣هـ ثم انتقل إلى تعز وعين استاذاً بالمدرسة المجاهدية ، نسبة إلى السلطان الرسولي المجاهد علي بن داود المتوفي سنة ٧٦٤ هـ ولم يصرح لنا كل من ترجم له بشيء عن تلاميذه إلا أن ديوانه قد حفظ لنا بعض الأبيات كتبها إلى ابنه علي يؤنبه في عدم حضوره مجالس الدرس .

وبعد ذلك ترقى إلى عدة وظائف حكومية عينه فيها الملك الأشرف كتلك التي أشرف فيها على نظارة مدينة المحالب ووادي مور . وكان الأشرف يطمع في ارساله إلى مصر للسفارة له مع سلاطين الدولة المملوكية لولا انه حدث مــا

أخر هذه السفرة. ويذكر ابن حجر أن المقري كان يتشوق إلى تولي القضاء العام بعد وفاة العلامة مجد الدين الشيرازي فلم يتمكن من ذلك .

مدح سلاطين آل رسول

عاصر ابن المقري أربعة من سلاطين آل رسول كان أولهم الملك الاشرف اسماعيل المتوفي سنة ٨٠٣ هـ وآخرهم الظاهر يحيى المتوفي سنة ٨٤٢ هـ وقد تعرض لهم ابن المقري كلهم بالمدح والثناء . ولعل أقدم قصائده في مدحهم تلك التي القاها على الملك الاشرف . وهي كثيرة جداً وقد بلغ مجموعها ٢٥ قصيدة ومنها ما هو تهنئة له بمناسبات دينية وعائلية .

أما الناصر أحمد بن اسماعيل فهو من أكثر الملوك الذين حظوا بمدائح المقري وقد احتلت من ديوانه حيزاً كبيراً - من صفحة ١٢١ إلى صفحة ٢٤٦ – وهو يعترف بافضاله عليه في هذه الأبيات :

ملأت يدي مما ملا الأرض ذكره   وجاوزت بي مما رفعتني الشهبا
ونوهت باسمي في الورى ونشرت لي   فضائل فيهم بدت العجم والعربا

إلا أن صفوه مع المنصور لم يستمر وحدث بينهما نزاع أدى إلى هروب ابن المقري إلى مدينة « بيت الفقيه ». ويمكن أن نعد من أسبابه ميل المنصور إلى الصوفية وتأثره بتعاليمهم في أواخر أيامه . ولم يشأ أن يحتمل ما قاله شاعرنا فيهم من قصائد لاذعة صرح فيها بتكفيرهم . ويوضح لنا المؤرخ يحيى بن الحسين عن معتقد هذا الملك في جملة صغيرة يقول انه « أحدث في آخر مدته أحداثاً غير مستحسنة كتقريبه المبدعة كإبن الأنف الاسماعيلي والكرماني الصوفي وغيرهما فضاقت منه صدور الناس وأولع بشرب الخمر »[١] .

وفي نهاية الأمر اضطر المنصور إلىمصالحته بعد أن خشي أن يتجه إلى ناحية

١ – يحيى بن الحسين : غاية الاماني ، ٥٦٦ .

الامام عدوه اللدود ولما عاد كتب اليه متمثلا بهذه القولة المشهورة :

« التـأم الجرح والاساءة غيب »[1]

ويبدو أن المقري كان حريصاً على انتمائه إلى الدولة الرسولية لتبنيها المذهب السني الذي كرس له كل جهوده وكتب في الدفاع عنه قصائد عديدة . وقد عبر لنا عن هذا الوفاء في بيت يقول فيه مخاطباً المنصور :

أمثلي ولحمي ؟! هواكم ومن دمي — يطيل على الأيام بيننا العتبا

مجالس بني رسول

من علامات تشجيع الملوك الرسوليين للحركة الأدبية ما كانوا يثيرونه بين الأدباء من مناقشات تسفر عن أعمال أدبيـة قيمة . وقد حدث في مجلس من المجالس التي يعقدها الملك الاشرف أن انقسم الأدباء إلى فريقين . فريق يرى تفضيل العنب على الرطب وهم أهل الجبال وفريق يرى العكس وهم أهل التهايم وقد ذكر الخزرجي ان هؤلاء أسندوا أمرهم إلى شاعرنا ابن المقري الذي دافع بجدارة عن الرطب . وإذا تعدينا هذا النمط من المجالس فان هناك ولائم فاخرة كانت تقام تكريماً للعلماء ويصف ابن المقري في قصيدة ما رآه من عجائب إحدى الولائم ومنها جملا مشوياً قائماً على رجليه . يقول لو رآه الجاهل لحسبه حياً :

سماط مـا أراه أم مناخ — لا بعرة تقـام وتستناخ
تراها وهي مشويـة قياماً — صحاحاً ما بمفصلها انفتاخ
قيامـاً في السماط وحولتها — طيور مـا حواليها فراخ
وضأن فيه تأكل من كلاها — ومـا ببطونها منـه انتفاخ
تراها والأكف تنـال منها — صموتاً لا رغاء ولا صراخ

وقد افتتن ابن المقري في تصوير تلك النعمة التي حظي بهـا عند الرسوليين

---

١ - ديوان ابن المقري : ١٤٧ .

ونجده في قصيدة طويلة يصف مجلساً عند السلطان الناصر :

مقعد صـــدق لمليك مقتدر كأنه من جنة الخلد اختصر
لا تبلغ الأخبـار من صفاته معشار ما يبلغ منها المختـبر
سقف نضارى يسر من رأى على أو اوين بهـا العـين تقر
وبركة تقابلت عقودهـا عرائساً مجـلوة للمبتكر
تظلها قبـــة تبر ، زخرفت متى تجل في وشيها الطرف اسر

وينتقل الشاعر في وصف هذا المجلس وما فيه من أزهار وطيور وفواكـه وغير ذلك .

في مكة

رحـل ابن المقري إلى مكة سنة ٨٠٨ هـ لأداء فريضة الحج وكان وصوله اليها قبل الحج بمدة طويلة. فأراد أن يزور قبر النبي ﷺ بالمدينة حتى يحين الوقت. ويقول جامع ديوانه انه لم يتمكن أثناء مكوثه بمكة من مقابلة شريفها الأمـير حسين بن عجلان لاستعجاله زيارة النبي ﷺ وقد أرسل اليه هذين البيتين يعتذر فيهما اليه :

أتيت مسلما ومن الدجـالة أقول مودعـاً خوف الثقالة
فان ترضى الوداع شكرت نفسي والا يرتضيه فشكرهـــا له

فوصل اليه جواب الأمير بالاذن له بالذهاب إلى المدينة وعنـد عودته قابل الشريف فقال له « والله لولا انك قاصد زيارة جدي لمنعتك »[١] وهذه القولة تدلنا على أهمية ابن المقري عند ملوك عصره . وكان قد منحه الشريف مكافأة ضخمة على قصيدة قالها في مدحه .

ويقول السخاوي انه قابل في مكة جماعة من العلماء منهم الصوفي عبدالرحيم

---

١ – ديوان ابن المقري: ٣٤٤ .

العراقي المتوفي سنة ٨٠٦ هـ [١] وغيره . وقد طالت اقامته بمكة وكان كلما هم بالرجوع إلى اليمن منعه الشريف حتى أنه أرسل هذين البيتين :

هذرتك في الحقوق فهل لعذري | وقد وفيت حقك من قبول
فان الحبس شق فليت شعري | متى ترثي وتأذن في رحيلي

ولعله بعد هذين البيتين سمح له بالذهاب . وقد حدث وهو في طريقه إلى مدينته أن انكسر به المركب وهو في البحر في موضع يسمى « شعب الرأس » فقال بيتين يدلان على هذه الواقعة :

لك الحمد كلا يجبر الشعب كسره | وكسرتنا لم تأت إلا من الشعب
وكان برأس العسكر الكسر ضحوة
إلا أن كسر الرأس من أعظم الخطب

بينه وبين معاصريه

يطول بنا الحديث إذا حاولنا استقصاء ما جرى لأبن المقري مع معاصريه من حوادث وخطوب وكان قد خلق لنفسه جماعة من الاعداء من طائفة الصوفية الذين تعرضوا له بالنقد والتحريش عند السلاطين الرسوليين ولعل قصائده في الرد عليهم من أشهر ما قيل في نقد الصوفية . وهذه القصائد تشغل حيزاً كبيراً من ديوانه ونلتقي فيها باسماء عديدة من الأشخاص الذين ناصبوه العداء أو قل هو الذي بدأ بمشاكستهم فلم يتركوه يحرض عليهم السلطان ومن هؤلاء الصوفي ابن هارون وهو كما يصفه شعر ابن المقري عالم دجال جعل من شعار العلم حرفة يتاجر بها ويكسب من ورائها المال :

ولابن هارون أخبار بمسجده | تذري الدموع بعيني كل منتحب

✓ – يلاحظ أن وفاته قبل رحلة ابن المقري الى مكة بسنتين ولعل له رحلة سابقة لم يذكرها من ترجم له .

وصار رزق رجال العلم في يده | كالفخ يصطاد فيه من اليه جبي
وكم طيالسة أمست توافقه | على «الفصوص» وما في تلكم الكتب
لتافه من طعام قد توهمه | بل ربما لم ينل منه سوى التعب

ومنهم الكرماني ويحيى بن روبك وهما من ألد خصومه وقد نظم في هجائهما قصائد كثيرة حفل بها قسم الصوفيات من الديوان . ويظهر انهما نجحا في التأثير على السلطان الناصر ودفعه إلى اضطهاد الفقهاء الذين ينتمي اليهم صاحبنا وقد كتب ابن المقري قصيدة طويلة يصور فيها ما أصاب الفقهاء من ضرب واهانة وهدم لبيوتهم .

وقد اثمرت خصومة ابن المقري للصوفية مؤلفاً ضخماً كتبه العلامة محمد بن محمد بن أبي القسم المزجاجي المتوفي سنة ٨٢٩ هـ في الرد على صديقه ابن المقري سماه « هداية السالك إلى أسنى المسالك » يقول فيه :

« وبعد فهذه رسالة من العبد الفقير محمد بن محمد المزجاجي إلى الأخ شرف الدين اسماعيل بن أبي بكري المقري وإلى كل من ينكر على الطائفة الصوفية » الخ وتوجد من هذا الكتاب نسخة جيدة بمكتبة الحبشي بمدينة الغرفة ونسخة أخرى بحجة .

أما إذا تعدينا جانب الخصومة من معاصريه فسوف نقف عند أصدقائه وهم كثيرون ولعل أبرزهم اولئك الاعلام الذين زاروا اليمن وقدر لابن المقري أن يتفق بهم ويتعرف عليهم وكان العلامة شمس الدين محمد الجزري عالم القراءات الشهير قد أتى إلى اليمن خصيصاً ليتفق بابن المقري ، يقول جامع الديوان : « لما وفد الشيخ شمس الدين بن الجزري ديار اليمن ودخل زبيد في شهر جمادى من سنة ٨٢٨هـ اجتمع به شخينا « ابن المقري » فقال له الشيخ شمس الدين والله ما زلت أتمنى الاجتماع بكم وهو جل مقصودي في اليمن ولقد انشدت عند قربي بلدكم وقلت :

اشتاق للبيت العتيق وزمزم ومقامه والركن والتقبيل
والآن بالشرف العلي لي المنا لما خصصت بحجر اسماعيل

يقصد بالشرف . « شرف الدين » ابن المقري .

ويعترف ابن حجر العسقلاني المتوفي سنة ٨٥٢ هجرية أنه سعى له عند السلاطين من آل رسول أثناء زيارته لليمن سنة ٨٠٦ وسنة ٨٠٨ ﻫ وطلب منه ديوان شعره المسمى « ضوء الشهاب » وقد كتب في مدحه قصيدة يقول فيها :

يا من رقي في المجد أنهى غاية بالحق أعيت من بقى ومن غبر
فضل سواك مدعى أو ناقص كأنه « أنت » أتت بلا خبر
لانت اسماعيل بالصدق له وصف على كل الورى به افتخر

ولا بد لنا ونحن نتحدث عن معاصري ابن المقري أن نعرض لعلاقته مع نزيل اليمن العلامة اللغوي الكبير مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازي المتوفي سنة ٨١٧ ﻫ وهي كما يبدو من ظاهرها تقوم على التنافس والمماحكة وكانت سبباً – كما يقول السخاوي – في تأليف كتابه الغريب « عنوان الشرف » وذلك لما علم أن الشيرازي صنف للأشرف كتاباً يبتدىء كل سطر منه بحرف الألف فاستعظم ذلك الأشرف واعتبره عملا فريداً فأراد المقري أن يثبت له أنه لا يقل مهارة عنه فصنف ذلك الكتاب . ولعل سر التنافس بينهما يعود إلى موقف الشيرازي المتذبذب من الصوفية وما عرف عنه من فتاوى تؤيد الصوفية على ما هم عليه . وهو مأخذ لاحظه عليه معاصروه تقي الدين الفاسي يقول : معاصره

« لم يكن ماهراً في الصنعة الحديثية . وأما شرحه على البخاري فقد ملأه بغرائب المنقولات سيما انه اشتهرت باليمن مقالة ابن عربي وغلبت على علماء تلك البلاد صار يدخل في شرحه من قبوحاته ... ولم أكن أتهمه بالمقالة المذكورة – مقالة ابن عربي – إلا أنه كان يحب المداراة »[1] . فتوحاته

١ – السخاوي : الضوء اللامع ج ١٠ ، ٨٤ .

ثناء معاصريه

أدرك ابن المقري شطراً من النهضة التاريخية التي عرفها اليمن وكان قد عاصر جماعة من كبار المؤرخين الذين عنوا بذكره والاشادة به وفي الفقرات الآتية نعرف بعض انطباعات زملائه وتلاميذه عنه وكيف صوروه .

١ – المؤرخ علي بن حسن الخزرجي « – ٨١٢ هـ » .

« كان فقيهاً محققاً بحاثاً مدققاً مشاركاً في كثير من العلوم والاشتغال بالمنثور والمنظوم إن نظم أعجب وأعجز وإن نثر أجاد وأوجز فهو المبرز على أترابه والمقدم على أقرانه وأصحابه ... ولم يزل الاشرف يلحظه ويقدمه وهو جدير بذلك فقد كان غاية في الذكاء والفهم ولا يوجد له نظير وقد قرأ علي ديوان المتنبي فاستفدت بفهمه وذكائه أكثر مما استفاد مني وكنت أحب لو أنه أتمه لكن حصل عائق »[1] .

٢ – جمال الدين محمد بن أبي بكر المخزومي « – ٨٢٧ هـ »

كتب اليه رسالة طويلة ضمنها شتى أصناف المدح والثناء منها :

« يقبل الأرض بين يدي سيدنا سيد القضاة العلماء ... أرغم بطيب حديثه أنف عدوه فهو الامام الذي شهد له العصر بالتقدم وأحرم المعاند لحاق فضله البليغ الذي أحيى الفصاحة .. ولله در هذا البارع ما أكمل ذاته وأعمر بابكار الأبيات الحسنة أبياته .. هنالك تمنى المملوك أن يقف بباب المطارحة الأدبية وعزم على مفاكهة الحضرة الكريمة » الخ[2] .

٣ – نفيس الدين سليمان العلوي « – ٨٢٥ هـ » .

« هو الفقيه الامام العالم ذو الفهم الثاقب والرأي الصائب بهاء الفقهاء نور العلماء علماً وعملاً وصاحب الحال المرضي قولاً وفعلاً المعتكف على التصنيف

---

١ – السخاوي : الضوء اللامع ج٢ ، ٢٩٣ .

٢ – ديوان ابن المقري ، ٦٩ .

والتحرير والمقبل عليه ملوك اليمن في الرأي والتدبير له الحظوة التامة عند الخاصة والعامة وهو بذلك جدير وحقيق »[1] .

٤ – ابن قاضي شهبة « – ٨٥١ هـ »

« قال لي بعض المتأخرين : شامخ العرنين في الحسب ومنقطع القرين في علوم الأدب تصرف للأشرف صاحب اليمن في الأعمال الجليلة وناظر اتباع ابن عربي فعميت عليهم الأبصار ودمغهم بأبلغ حجة في الأفكار وله فيهم غرر القصائد تشير إلى تنزيه الصمد الواحد »[2] .

٥ – عفيف الدين عثمان بن عمر الناشري « – ٨٤٨ هـ » (أحد تلامذته) .

« مدقق في العلوم وأشعر أهل زمانه . وسمعت طلبته يذكرون عنه كثرة العبادة والزهد .. وكان في غاية التدقيق إذا غاص في مسألة وبحث فيها أطلع على ما لم يدركه غيره لكون فهمه ثاقباً ورأيه وبحثه صائباً حتى انه حرر كثيراً مما اختلف فيه أتم تحرير ومع ذلك كان في غاية النسيان قيل انه لا يذكر ما كان في أول يومه »[3] .

وفاته

لا يعنى كل من ترجم لابن المقري بترتيب حوادثه وسياقها حسب الأقدمية وقد جاءت كل تراجمه مختلطة ببعضها البعض ومن ثم لا نعرف ما كان عليه ابن المقري قبيل وفاته . ومن خلال قصائده القليلة التي كتبها في مدح السلطان الظاهر يحيى بن اسماعيل المتوفي سنة ٨٤٢ هـ نستطيع أن نخمن أنها من أواخر ما نظمه . وتشير مقدماتها انه احتل في اواخر أيامه مكانة رفيعة في الدولة الرسولية . وكانت وفاته سنة ٨٣٧ .

---

١ و٢ و٣ – السخاوي : الضوء اللامع ، ج٢ ، ٢٩٣ ، ج٢ ، ٢٩٤ ، ج٢ ، ٢٩٥ .

مؤلفاتـــه

ترك ابن المقري ثروة فكرية ضخمة لاقت قبولا واستحساناً عند معاصريه ومن أتى من بعده . ويمكن ان نقسمها إلى شقين :

١ – كتب دينية فقهية

الف ابن المقري مجموعــة من الكتب الدينية والفقهية لتدرس بمدارس الدولة الرسولية الموزعة بشتى أنحاء الجزيرة وجلها على مذهب الشافعية ، مذهب الدولة الرسمي . وهذه الكتب :

١ – ارشاد الغاوي إلى مسالك الحاوي .

اختصر فيه كتاب الحاوي للقزويني في الفقه . وقد اهتم بكتابه هذا جماعة من العلماء وأولعوا بشرحه واختصاره ونظمه ويذكر مؤلف كشف الظنون جماعة من هؤلاء .

- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (المتوفي ٨٥٢ هـ) له عليه شرح عظيم .
- كمال الدين محمد بن شريف المقدسي (المتوفي سنة ٩٠٣ هـ) له شرح عليه .
- مصلح الدين بن محمد اللاري (ت ٩٤٩) له عليه شرح .
- ابو العباس احمد بن محمد القسطلاني (ت ٩٢٣) : مختصر الارشاد .
- برهـــان الدين ابراهيم بن محمد الحلبي (القرن التاسع) : نظــم الارشاد .
- احمد بن صدقة الصيرفي : نظم الارشاد .

وغيرها من الشروح والاختصار مما يدلنا على اهتمام العلماء بهذا الكتاب وقد طبع بالقاهرة سنة ١٣٢٠ في ١٥٠ صفحة .

٢ — اخلاص الناوي شرح ارشاد الغاوي .

شرح فيه كتابه السابق . ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ٢٣٥٢ .

٣ — جواب على قصيدة في مسائل الفقه اجاب فيه على الفقيه حسين بن عيسى بن محمد بن العليق . نسخة مخطوطة بدار الكتب برقم ١١ .

٤ — فتاوى ابن الذبيح [١] اسماعيل بن أبي بكر بن المقري . مرتب على أبواب الفقه جمعه احد تلامذته . ومنه نسخة بمكتبة الحبشي – بالغرفة من جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية .

٥ — منظومة فيمسألة الماء المشمس ، قال عنها ابن حجر العسقلاني انها تزيد على الف بيت .

٦ — روض الطالب ، اختصر فيه كتاب الروضة في الفقه للنووي وهذا الكتاب لا يقل أهمية عن كتابه «الارشاد» وقد تصدى لخدمته جماعة من العلماء منهم : ابن حجر العسقلاني وله عليه شرحان الأول اتلفه أحد معاصريه غيرة وحسداً . وشرحه ايضاً تلميذه سراج الدين عمر محمد الزبيدي المتوفي سنة ٨٨٧هـ وسماه « الالهام لما في الروض من الأوهام » وهو كما يبدو من عنوانه متحامل عليه . وشرحه ايضاً الشيخ زكريا الأنصاري المتوفي سنة ٩٢٥ هـ وسماه « اسنى المطالب » وهو مطبوع بالقاهرة سنة ١٣١٣ هـ في اربعة مجلدات .

٧ — كتاب في الرد على الطائفة الصوفية (العربية ؟)

ومؤلفات ابن المقري الأدبية قليلة جداً وهي على قلتها حظيت بشهرة واسعة في الأوساط لمطابقتها روح العصر من حيث اعتمادها الكلي على الصبغة التعليمية

---

١ — ابن ابي الذبيح من القاب ابن المقري ورد في بعض نسخ كتبه المخطوطة .

والاختبار الصعب . وسوف نتناول هنا ذكر اسمائها فقط ونرجىء الحديث عنها في بحث آخر نتناول فيه ادب ابن المقري وشعره :

١ — الجمانات البديعة . قصيدة بديعية في مدح النبي ﷺ على منوال قصيدة ابن حجة الحموي وله عليها شرح مختصر . توجـــد منها عدة نسخ بمكاتب العالم منها نسخة جيدة بمكتبة الحبشي بمدينة الغرفة بمحافظة حضرموت من جمهورية اليمن الشعبية .

٢ — ديوان ابن المقري . طبع تحت عنوان (مجموع القاضي الفاضل الامام العلامة أبي الذبيح اسماعيل ابن أبي بكر ابن المقري) . وقد جمعه أحد تلامذته من غير أهل زبيد . وقال في المقدمة :

« لما قدمت زبيد في سابع عشر جمادى الآخرة مـن سنة ٨٣٣ هـ وعاينت « ابن المقري » البحر الذي كنت أخال سحابه .. وحيد أهل زمانه فتحققت حق وقفت على أقواله انه لم ينسج ناسج على منواله فعند ذلك باشرت في العمل وأيقنت بنجاح الامنية والأمل » .

ولا سبيل إلى الصحة فيما توهمه السخاوي حـــين زعم ان جامع ديوان ابن المقري هو العلامة أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف الشرجي المتوفي سنة ٨٩٣ هـ ذلك لانه احد رجال التصوف باليمن وله في مناقبهم كتابه المعروف « طبقات الخواص » ويستبعد أن يكون جامع ديوان ابن المقري لما اشتمل على نقد شديد للصوفية وتفكيرهم . وفي النبذة السابقة التي نقلنا من مقدمة الديوان نعرف أن جامعه ليس من أهل زبيد في حـين ذكر السخاوي نفسه في الترجمة التي كتبها عن الشرجي انه ولد بزبيد وعاش فيها .

طبع ببومبي بالهند سنة ١٣٠٥ هـ على نفقة احد تجار البحرين .

٣ — عنوان الشرف الوافي .

وهو من اشهر كتبه ويقول السيوطي انه الف على منواله كتاب « النفحة المسكية »[1] في ليلة واحدة .

له عدة طبعات :

طبعة حيدر اباد .	سنة	١٢٧٢
طبعة المطبعة العزيزية بحلب .	سنة	١٢٩٤
طبعة محمد مصطفى بالقاهرة .	سنة	١٣٠٩
طبعة المقتطف بالقاهرة .	سنة	١٣١٨

١ ـ السيوطي : بغية الوعاة ، ١٩٤ .

نزعة التحرر في الفكر اليمني

محمد بن ابراهيم الوزير

مر تراثنا المكتبي خلال تاريخه الطويل بفترات كثيرة أثرت في كيانـــه وجعلته يصطبـغ بانماط من السهل الفصل بين أنواعها .

إلا أن المسحة العامة التي اتسم بها هذا التراث يمكن ان نلخصها في انه إنتاج جدلي يغلب عليه طابـع المناقشة والردود ، وهذا ما يلاحظه الباحث خـلال مروره بالحشد الهائل من عناوين الكتب اليمنية .

ويمكن ان نختـــار من بين المدارس التي عرفها « الفكر اليمني » المدرسة (السلفية) التي عرفت بحرارتها الشديدة ووضوحها التام في شتى اغراضها .

وهذه المدرسة كان من المحتمل أن تتأخر إلى حوالي القرن الحادي عشر الهجري لولا أن قيض لها منذ القرن التاسع مفكر يمني قدير استطاع أن يشق تربتها ويبذر غرسها حتى ما أن اتت العصور المتأخرة إلا وقد أتت أكلها .

هذا المفكر هو (محمد ابراهيم الوزير) المتوفي سنة ٨٤٠ هـ الذي يحق لنا أن نطلق عليه بأنه أبو النزعات التحررية في اليمن .

لم يكن مصدر إشعاع لدعاة السلفية في بلده وحدها بل كان نبراساً يهتدي به دعاة التحرر في العالم الاسلامي عامة . فاننا نلاحظ أن دعاة الاصلاح الذين

عرفهم عصرنا الحديث أمثال محمد بن علي السنوسي في المغرب والالوسي في العراق ومحمد عبده في مصر لم يكونوا إلا نقلة لأفكار هذا الرجل ومن تلاه من تلامذته اليمنيين .

انتاجـــه :

ترك لنا ابن الوزير حصيلة مكتبية ضخمة تنبه لأهميتها بعض المعاصرين فحاولوا نشر كل ما استطاعوا العثور عليه من مؤلفاته .

ومن هنا لا بد أن نجعل منه المرتكز لدراسة التراث اليمني للبحث عن نزعات التحرر فيه ، ونحن لا نكاد نلتقي برجل غيره له تلك الحيوية والنشاط في مقارعة خصومه ، وهو في هذا المجال يذكرنا برجل آخر عرف عنه قوة الحجة وسعة التأليف وقوة أفكاره هو ابن « تيمية » الذي لا نستبعد أن يكون مفكرنا قد تأثر به وحاول تقليده في السبل التي ارتادهـا إلا أن هذا التقليد يتضاءل حينما نعلم نوعية الخصوم الذين قارعهما الرجلان فلقد غلبت على مفكرنا اليمني نزعة الاصلاح التي كان يقصدها من وراء بحوثه وإنتاجه بينما نجد ذلك في إنتاج ابن « تيمية » الخاص باصطلاحات العلوم والمسائل الدقيقة .

ومن المؤسف له ونحن في سبيل التطرق إلى إنتاج ابن « الوزير » أن غالبيته لا يزال مطموراً داخل المكاتب العتيقة . والقليل منه ما تعددت مخطوطاته في حين كانت الأكثرية قد تلاشت على أثر عوامل التلف والملاحقات الحاقدة لهذا الرجل .

وقد ساعدت مؤلفاته على وجود مدرسة منشقة عن المدرسة اليمنية القديمة كانت سبباً في اذكاء النقاش والحوار الجدلي بين رجال المدرستين الذي أصبح صبغة عامة للتراث اليمني كما ألمحنا من قبل .

شخصيته وعصره :

ويحق لنا ونحن في سبيل أفكار هذا الرجل التحررية أن نقف قليلاً عند شخصيته التي اذكتها الظروف وساعد على تفتحها عصره المشبع بنوع من الحرية في القول وهو الأمر الذي نكاد نفتقده في تلك العصور القديمة . ويجمع كل مترجميه على تزكيته وانصافه ويلاحظ الباحث في الترجمة التي كتبها الشوكاني عطفاً شديداً وتجاوباً روحياً إلا أنه لا يعطينا شيئاً جديداً يذكر واجد خيراً من تلك التطويلات التي غرق بها كتاب التاريخ في ترجمة مفكرنا تلك الاعترافات القصيرة التي كتبها عن نفسه خلال بعض فصول كتبه وهي تفسر لنا بعض الخلجات الروحية التي مر بها فهو يقول عن نفسه « لما تمسكت بعروة السنن الوثيقة تناولتني الالسنة ونسبوني إلى دعوى في العالم كبيرة فصبرت على الأذى وعلمت أن الناس هكذا » .

وهو في جميع تلك النصوص يذكرنا بأنه تعرض لمعارضة أهل عصره ونصبوا العداء له وله معهم قلاقل وزلازل . كانوا يثورون عليه ثورة بعد ثورة وينظمون في الاعتراض عليه القصائد .

ولا نجد سبباً لهذه الخصومة سوى ما عرف عنه من أفكار تحررية تجعله أحد المفكرين الاسلاميين القلائل الذين ساهموا في تنشيط الدعوة ومحاربة اعدائها.

وقد ضمن كل أفكاره في كتابيه القيمين « إيثـــار الحق » و« الروض الباسم » وغيرهما .

اسلوبه في البحث :

أ ــ المنهجية : وقبل الدخول في عرض تلك الأفكار نتناول منهجية المؤلف في البحث وأسلوبه في التأليف حتى نكون على ادراك تام بالاسس التي اعتمد عليها في تفكيره .

والمنهجية المتبعة في كتاباته تلفت نظرنا إلى تلك الطبيعة التي عرف بها : من احساس شفاف وذوق فني رفيع لم يكونا إلا وليدين للخصائص الخلقية والنفسية التي تميز بها .

واولى العلامات في منهجية مفكرنا تتلخص في روح الاعتدال الذي أخذ به في معالجاته العلمية وهو بدوره متفرع عن الرأي بوجوب البحث عن الحقيقة أو ما يسميه « الرجوع إلى الطريق السليم »وقد لاحظ على من سبقه من مفكري الاسلام انهم أكثروا التشعيبات في العلم « الالهي » حتى أدى هذا إلى تعدد طرقه وتعصب كل فريق إلى طريق من هذه الطرق « ولم يقدموا في مصنفاتهم ما قوته الدلائل البرهانية سواء كانت لقريب أو لبعيد أو لصديق أو بغيض » .

وقد رأينا المؤلف حين اراد عرض أفكار من الاسلاميين يشدد كثيراً على الأخذ بالحيطة والتروي فيما يصدر عنه من أحكام ضدهم ولا يفوته ان يأخذ عليهم أنهم حصروا موضوع العلم في المجادلات الفارغة التي لا تفضي بنا إلى المذهب الحق ، ومن هنا ذهب إلى ان سبب من اخطأ منهم يعود إلى تعصبه لما جبل عليه وليس إلى الفهم .

والحق امر لا بد من الرجوع اليه ولا يمكن ان نبلغه إلا بوسائل خاصة توصل اليها مفكرنا بعد جهود مضنية من النقد الموضوعي الذي شق به طريقة تفكيره الذاتي.

وقد اعلن عن هذه الحقائق في كتاب له – لا يزال مخطوطاً – وفيه نلتقي بمنهج خاص في النقد لا نعلم احداً سلكه من قبل المؤلف ، ويذهلنا فيه ما توصل اليه من افكار تجعله سابقاً لعصره ؛ من حيث اخذه بما يشبه نظرية « الشك » التي دعى اليها الفيلسوف الفرنسي ديكارت ففي كتابه (القواعد) يضع امام الباحث خمس صيغ للاخطاء التي قد يقع فيها ولا يعرف مع احدها شيئاً من الادلة البينة فمن اراد الانتقاد فليحترز منها وفي الصيغة الخامسة ينتهي به الأمر إلى الأخذ بنظرية الشك ونسمعه يقول : « لا يجب القطع بصحة ما ينظر فيه ،

أو بفساده . ولا خلاف أن من قطع بصحة أمر او فساده لم يتمكن من النظر فيه . وأصل هذه الآفة ان يكون قـد رسخ في نفسك بطلان أمر او قبحه وأنت لم تحط خبراً بمعرفة أدلة ما تعتقده » .

وفي هذا النص القصير نجد ابن الوزير يضع ـ بعلم منـــه أو بدون علم ـ الأسس التي اعتمدت عليها مدرسة (الشك) في النقد الفلسفي الحديث .. والتي تجعل من الشك ذريعة للوصول الى الحقيقة .

ولا نجد قبل ابن الوزير مَن توصل الى هذا من المفكرين الاسلاميين سوى ما ينسبه الباحثون من نص مشبوه « للإمام الغزالي » يوحي الى انه مرّ بفترة شك وتذبذب .. ولكن ابن الوزير يظل المفكر الوحيد الذي حـاول تطبيق نظرية (الشك) عملياً ، وهذا ما يلاحظه الباحث في كتابات الرجل ، والتي يجدها في عمومها مشبعة بجو من القلق والتردد ، واذا رجعنا الى بقية منهاجه النقدي نجده في عمومه تأكيداً لما انتهى اليه سابقاً ، فهو في فقرة منه يصرح بضرورة الاعتزاز بالنفس وان لا يعتقد الباحث بقصور نفسه واستصغار شأنه بحيث اذا سمع البرهان الصحيح الذي انتهى اليه عقله جوز انه انمـا استحسنه لقلة علمه وضعف فهمه ويمكن أن تكون هذه الفقرة تكملة لما نادى به في عدة مواضيع من كتبه : من وجوب الاجتهاد الشخصي في شق مسالك العلم . وليس معنى هذا انه يشدد على قبول الرأي الذي لا يستند على حجة منطقية ، بل نجده في زاوية أخرى من منهاجه ينكر على أولئك الذين يشتطون في جنبة القبول والرد ، ولذلك فهو ينصح البـــاحث بالاعتدال والتوسط بين طرفي الافراط والتفريط « فانك اذا اعتقدت بطلان أمر لمجرد سوء الظن كنت أفرطت في جنبة الرد وان اعتقدت صحته ببادىء الرأي من غير تحقيق كنت مفرطاً في جنبة القول » .

ولهذا يحتم على الباحث ان يكون منطقي الذهن في كل ما يعترض بحثه .

وفي الواقع اننا نعجب لهذه الأفكار الرائدة ، التي توصل اليهـا مفكرنا

اليمني، ولا نستبعد أن يكون قد سن لنفسه منطلقاً خاصاً به يعتمد على الانتقاء والاختيار وليس على الرد والتشنيع كما هو معروف في منهج المفكر الاسلامي « ابن تيمية » .

ولا مانع في هذا الصدد من أن ننقل الى الباحثين الناشئين نصيحته القيمة التي يسوقها لهم : « إياك اذا عميت مسالك الفهم أن تضرب عن النظر صفحاً فان الفهم يصفو بعد التكدر فمتى أحسست ان فهمك قد كل ، وحده قد أفتل فلا تعاود النظر في المسألة وأرح خاطرك حتى تجد النشاط قد عاد عليك » .

النزعة النقدية :

وأول ما نلاحظه من خصائص النقد عند ابن الوزير هو استعماله للفطرة السليمة في البحث عن حقائق الأشياء بعيداً عن الاصطلاحات الكلامية التي عرفها علماء عصره ، وليس هذا ناجماً عن عجز في معرفة رموز ذلك العلم وإنما هو لغرض مقصود دعا اليه المؤلف في كتابه « إيثار الحق » وهو لزوم تبسيط العلوم الإلهية حتى يدركها عامة المتعلمين.. ولذلك لا يرى غضاضة في القول بأنه لا يرمي من كتاباته سوى نفع أهل الطبقة الوسطى من العلماء ومن يقاربهم في المنزلة .

وقد حاول أن يبعد عن تلك العلوم طابع المهابة والقدسية المكللة بها من قِبَل المتقدمين الذين أفرطوا في تهويلاتهم نحو تلك العلوم حتى أدى الأمر الى هجر العلم وتركه لجماعة من متحذلقي المتكلمين .

ولا يفوته أن يرجع ما أخذ به الى أسس تاريخية دينية تؤيد ما ذهب اليه . فلم يكن من عرف في عهد النبوة والخلفاء مَن تمسك بتلك المناهج المنطقية أو نحا نحوها .

كما أن تلك الاصطلاحات سواء أكانت اسلامية أو يونانية لا يمكن أن تؤيد حق أو تنفيه ما دام الأمر واضحاً في الشريعة ، وما يعيبه على المتقدمين أنهم

أفرطوا النظر في المسلمات الواضحة حتى أخرجتهم الى ما يشبه التناقض والمحال في حين لا يؤدي بنا ذلك الى شيء بل الى تحصيل الحاصل والتشكيك فيه، ويبني على ذلك قاعدة سليمة وهي ان علماء الإسلام كلما توسع بهم البحث في مجال الإلهيات انتهى بهم الأمر الى توسيع الخلاف بينهم، وكل هذه العيوب التي لاحظها على مَن تقدمه حاول أن يتجنبها بقدر ما نقدها في سائر كتبه، وانتهى به الأمر الى وضع منهج نقدي خاص به، ومع انه يلتزم في كل نصوصه بالمادة الدينية إلا أنه لا يتنافى في جوهره مع العقل السليم الذي نادى بالتمسك به في مواضع كثيرة .

وفي الواقع ان تلك التحررية التي نحسها في منهج « ابن الوزير » النقدي تنفي عن رجال الدين وخاصة أهل الحديث ما عرف عنهم من جمود وتقليد متزمت لاحظه عليهم العلامة «ابن خلدون» في المقدمة، ولولا أن «ابن الوزير» ظل محصوراً داخل اليمن لكان سلاحاً نفاذاً ضد من يتهم المحدثين بتلك النقيصة . وكنا نحب لو أن مفكرنا توسع في الحديث عن طريقته في النقد كتلك الفقرات الصريحة التي نجدها في مقدمة كتابه « القواعد » ولكن يمكن أن نبحث عن ضالتنا من خلال التطبيق العملي لذلك المنهج الذي نجده ممثلاً في كل مسودة من كتابات لا تخرج بنا عن نطاق النقد الديني .

وهو حينما يدفع عن نفسه الشبهة أو يجادل خصومه نجده يستعمل مقاييس بديهية تستند في عمومها على تلك الأسس التي اعتمد عليها نقده وأعني بها : « النص الديني » و « العقل الفطري » التي لا تمت الى اصطلاحات المتكلمين والفلاسفة بصلة .

وفي سبيل التدليل على ذلك رأيناه ينقد خصومه من معارضيه في الرأي من وجهة النقل والعقل في حين تلونت كل كتاباته بما فيها النقلية ـ بصفة خاصة ـ من روحه لوناً جديداً .

وللمستمع اليه يلخص فكرته في هـذا المضمون « ينبغي على كل مكلف أن يطرح العصبية ويستعمل النظر بالفطرة التي فطره الله عليها » .

وهذا نص صريح دعا فيه الى تقديم العقل الفطري السليم على مـــا هو مضطرب من أقوال المذاهب والنحل ، وهو في هذا السبيل يفرق بين النص الديني الصحيح والنص المغلوط .

ولذلك رأيناه يشدد في الأخذ بالقول المعتمد الذي زكاه مَن تقدم من رجال الحديث الموثوق بهم ويبني في توثيقه كل ما توصل اليه من أفكار فطرية لم يكن يستعملها إلا لهذا الصدد .

أثره على مَن بعده :

في الواقع أن هذه الدعوة التي نادى بها « ابن الوزير » في القرن التاسع أنمت الفكر اليمني وجعلت رجالاته ومفكريه يبنون مدرسة خاصة اعتمد فيهـــا أفرادها على الأفكار الشخصية لهم دون الرجوع الى مـــا هو متفق عليه عند المفكرين ، وكذلك رأيناهم يبعدون تلك القداسة التي أضفاها مفكرو الإسلام بما فيهم « الغزالي » على منطق اليونان « المجسطي » ولم نجد منهم مَن وضع له أدنى اعتبار .. في حين أثمرت تلك الدعوى التي نادى بها مفكرنا من وجوب الأخذ بالعقل الشخصي دون الرجوع الى أفكار الآخرين عند كل مفكري اليمن. ورأينا عالماً يمنياً هو « محمد بن اسماعيل الأمير » يضع تأليفاً خاصاً في هذا المجال عنوانه « إيقاظ الفكرة لمراجعة الفطرة » .

وفيما يلي سوف نتناول مـــا توصل اليه « ابن الوزير » من أفكار تحررية في العلم ولم تكن إلا وليدة لذلك المنهج الذي أخذ به في النقد وكان من نتائجه أن دفع صاحبه الى اعتناق مبادىء شخصية لم نجد مَن أخذها قبله . ولولا أنـــه يتمتع بقدرة عقلية فائقة لوقع في التناقض فيما وصل اليه من مقارنات بين « الدين » و « الفطرة » وهو الأمر الذي سلم منه .

وأكبر قسط من معالجته التحررية يمكن أن نجدها في بحثه في مسألة «الاجتهاد والتقليد» وهي المسألة التي ولع بها مفكرو اليمن منذ عصر «ابن الوزير» الى زمن «الشوكاني» في القرن الثالث عشر الهجري .

وكان من نتيجتها أن تركت لنا وراثاً حافلاً .

ومع ان هذه المسألة أصولية في ذاتها إلا أن «ابن الوزير» استطاع أن يحولها بعاطفته الخاصة الى مسألة اجتماعية كبرى ، ناقش فيها موضوع الجمود والتحرر وما تفرع عنهما من أبحاث انسانية دقيقة .

ولا نكاد نعرف قبل مفكرنا من تناولها بتلك الحرية والابتكار حتى أن «ابن تيمية» مع تنوع أبحاثه في موضوع النقد لا نجده درّس هذا الموضوع الهام .

ويظهر أن تلك الأبحاث التي كتبها العلامة المغربي «محمد بن علي السنوسي» من رجال القرن الثالث عشر الهجري عن الاجتهاد كان متأثراً فيها بمفكرنا اليمني من حيث اعترافه بالنقل عنه وتقليده في أسلوب المعالجة .

أما في اليمن نفسها فسوف نجد كل من ألف في الاجتهاد بعده ينقل عنه .

والمتأمل لما كتبه «ابن الأمير الصنعاني» في كتاب «إرشاد النقاد الى تيسير الاجتهاد» يجده مستقى في جوهره من كتاب القواعد في الاجتهاد «لابن الوزير» ونفس الملاحظة أخذ بها الشوكاني في كتابه «القول المفيد» .

محصل نزعته التحررية :

والآن ما الذي يمكن أن نستفرغه من انتاج «ابن الوزير» في موضوع التحررية ؟

هنا يفرض علينا البحث أن نتابعه في المسائل التحررية التي أثارها عن

الاجتهاد الذي هو جزء لا ينفصل عن تلك المسألة وان كنا سنتجنب كل ما له دخل بمواضيع الفقه ومتشعباته .

والمسألة الاجتهادية عند « ابن الوزير » لم تكن تعنينا إلا من حيث أنها تصور نزعة التحرر في نفسه غاية التصوير ، ومن يدري لعله أراد بها معالجات أخرى لا تتناول ما يدرس ظاهر الموضوع وإنما تتناول شيئاً آخر يشبه ما نسميه اليوم بالانطلاق والتجديد .

وهكذا يمكن القول أن أبحاث « ابن الوزير » على مشاركتها لعلوم عصره المعروفة تعرضت لأمور هي أقرب الى عصرنا الحاضر من عصر المؤلف في القرن التاسع الهجري .

ونرى من نماذج تلك الروح المتجددة التي نحسها في انتاج «ابن الوزير» دعوته الى نبذ التقليد والأخذ بالرأي الشخصي بعد عرضه على النصوص الدينية المسلم بها .

وهذا هو المحور الذي حامت حوله كل افكاره في الإلهيات والفقه . والمتتبع لما كتبه في « إيثار الحق » و « القواعد » يجد المؤلف يبني أفكاره على قواعد أساسية تمكنه بعد ذلك من وضع براهينه وأقيسته .. وهو حين يصرح بالاجتهاد يضع أمام القارىء صوراً من المتابعة التي هي جوهر موضوعه ثم يذهب الى أن المقصود من المتابعة في المعنى دون الصورة . وعلى هذا الأساس نجد تفرع كتابه في « فصول » و « مسائل » و « مهمات » كلها تؤيد ما ذهب اليه .

وفي مجال التدليل نجده يستشهد بوضع المرأة الجثماني فهي لا يمكن ان تتابع النبي في الصورة بحكم بعض امورها الخاصة.. كذلك الرجال لا يتم لهم المتابعة للنبي من الصورة .

الشوكاني ناقد المجتمع

عرف الشوكاني بأنه مجدد القرن الثالث عشر الهجري . وهـذا التجديد لا يجب أن نقبله الآن بمفهومه القديم الذي اعتاده كتاب التراجم ، إذ ارتبط في غالب الأحيان بمقاييس اسلامية دينية. ومع ان الشوكاني له أثره الكبير في مجال الفكر الديني واصلاحاته فيه بحيث يجعله هذا الرائد الأكبر للنهضة الدينية التي دعا اليها الشيخ جمال الدين الأفغاني وجماعته . إلا أن هناك جانب آخر في فكر الإمام الشوكاني لم يتنبه اليه أحد من الدارسين وهو منهجه الفذ في إصلاح المجتمع ودراسته فيكون بذلك سابقاً لعصره بعشرات السنين .

وقد عالج قضايا اجتماعية كثيرة ، ما أحقنا الآن بالكشف عنهـا والتنبيه عليها ليكون لنا في تراث هذا الرجل العظيم اصالة وطنية تشد أزرنا بالقديم والجديد معاً .

وحين تصفحت انتاج هذا المفكر حول القضية الاجتماعية وجدته قد نادى بأمور لعله السابق بها ليس في اليمن فقط بل والعالم العربي كله حيث نجده قـد دعا – مثلاً – الى تعميم التعليم في الأرياف ونادى بإشراف الدولة على المراكز الحكومية المتولية أمور الناس في المدينة والريف بل انه اول من أعلن صيحته في وجوه الولاة « العمال » الى غير ذلك من القضايا التي لا تزال تشغل وجدان المجتمع اليمني حتى الآن .

وقد وقفت على كل هذا في رسالة صغيرة ألفها الشوكاني بعنوان « الدواء العاجل في دفع العدو الصائل » وهي بحق ما أجدرها بأن تكون الآن المنهاج الذي نسير عليه في إصلاح المجتمع .

أسباب تأليف الرسالة :

وكان من أسباب تأليف هذه الرسالة ان الشوكاني فكر ذات ليلة فيما أدى اليه الحـال في اليمن من انتشار الفوضى وعموم الفتن وتعطيل أسباب الناس المعيشية، مما انتهى الى اختلاط الحابل بالنابل، وبجانب كل هذه الفوضى الادارية التي عاشتها اليمن في العهد الإمامي ، يقول :

« فكرت في ليلة من الليالي في هذه الفتن التي نزلت بأطراف القطر اليمني وتأججت نارها وطار شرارها حتى أصاب كل فرد من ساكنيه بشواظ ، وأقل ما قد نال من هو بعيد عنها ما صار مشاهداً معلوماً من ضعف المعاش وتقطع أسباب الرزق حتى ضعفت أموال الناس وتجاراتهم ومكاسبهم، وأفضى الى ذهاب كثير من الاملاك وعدم نفاق نفائس الاموال ... هذا حال من هو بعيد عنهـا لم تطحنه بكلكلها ولا وطئته بأخفافها وأما من وفدت عليه وقدمت اليه .. فيا لله كم من بحار دم أراقت ومن نفوس أزهقت ومن محارم هتكت ومن أموال أباحت ومن قرى ومدائن أطاحت بها الطوائح » .

ولا غرابة فيما يقوله الشوكاني إذ العصر الذي أدركه كان زمن تضعضع الحكم وترديه في أسوأ مهاوي الرذيلة، ويكفي القارىء ما كتبه عنه لطف الله جحاف حتى يتضح له الى أي حد وصل اليه اليمن في ذلك الوقت .

أقسام المجتمع اليمني عند الشوكاني :

ولكي يشخص الأدوار التي تنخر في كيان المجتمع اليمني يعود بنـــا الى الأصول الرئيسية التي تكوّن منها المجتمع ويحددها في ثلاثة أقسام كبرى هي:

القسم الأول : وهم المواطنون التابعون لسلطة الدولة سواء أكانوا في المدينة أو البادية .

القسم الثاني : القبائل التي ليس للدولة سيطرة عليهم .

القسم الثالث : أهل المدن كصنعاء وذمــار ، وهم داخلون تحت أوامر الدولة .

وهكذا فــان الشوكاني قد انطلق في تحليله للمجتمع اليمني من خلال هذه الزوايا الثلاث ليتسنى له درس مشاكلها كل على حدة . يقول : انقلبت الى النظر في الأسباب الموجبة لنزول المحن وحلول النقم من ساكني هذا القطر اليمني على العموم من دون نظر الى مكان خاص أو طائفة معينة فوجدت أهلها مــــا بين صعدة وعدن ينقسمون الى ثلاثة اقسام . القسم الاول : رعــايا يأتمرون بأمر الدولة وينتهون بنهيها ولا يقدرون على الخروج عن كل مــا يرد عليهم من أمر ونهي كائن ما كان . القسم الثاني : طوائف خارجون عن أوامر الدولة متغلبون في بلادهم . القسم الثالث : اهل المدن كصنعاء وذمار وهم داخلون تحت أوامر الدولة ، ومن جملة من يصدق على غالبهم اسم الرعية ولكن يتميزون عن سائر الرعايا بأمور .

والآن مع هذه الأقسام الثلاثة :

وأولها : المواطنون الذين يأتمرون بأوامر الدولة ، وسنجد الشوكاني ـ كعالم ديني ـ يحلل مشاكلهم المتعلقة بالأخلاق والدين « فأكثرهم بل كلهم إلا القليل النادر لا يحسنون الصلاة ولا يعرفون ما لا تصلح إلا به . وكثيراً ما يأتي هؤلاء الرعايا بألفاظ كفرية فيقول : هو يهودي ليفعلن كذا ومرتد بالقول أو بالفعل وهو لا يشعر ، ويطلق امرأته بألفاظ يديم التكلم بهـا كقوله : امرأته طالق إن ما فعل ، وكثير منهم يستغيث بغير الله تعــالى من رجل من الأموات أو صحابي أو نحو ذلك » .

وسنجده يعود باللوم في هذه المسألة الى العمال الذين لا هم لهم إلا جمع المال كما سيتضح فيما بعد .

وثاني هذه الأقسام وهم : أهل البلاد الخارجة عن أوامر الدولة ونواهيها كبلاد « القبلة » و « المشرق » ونحو ذلك ، وشأن هؤلاء أخطر حيث أنهم يتفقون مع القسم الأول « الرعايا » في ترك الواجبات الدينية والشرعية إلا أنهم زادوا عليهم باختراع تشريع خاص بهم سموه « الطاغوت » وهو مخالف تماماً لما جاء به الدين من تشريع القضايا الخاصة بالمجتمع . وهناك أشياء أخرى أضافوها الى قانون « الطاغوت » « فهم مصرون على أمور غير الحكم بالطاغوت والتحاكم اليه وذلك كإطباقهم على عدم توريث النساء وإصرارهم عليه » الى غير ذلك من القضايا المخالفة للشرع الاسلامي « ومع هذا فغالبهم يستحل دماء المسلمين وأموالهم ولا يحترمها ولا يتورع وهذا مشاهد ومعلوم » .

أما القسم الاخير فهم أصحاب المدن « وإن كانوا أبعد الناس من الشر وأقربهم الى الخير ، لكن غالبهم وجمهورهم هم عامة جهال يهملون كثيراً مما أوجبه الله عليهم من الواجبات من الفرائض جهلاً وتساهلاً » ومع ذلك « فهم أقرب الناس الى الخير وأسرعهم قبولاً للتعليم اذا وُجد من يعزم عليهم عزيمة مستمرة » .

الهيكل الاداري والمجتمع :

ويرى الشوكاني أن أكثر ما بلي به المجتمع اليمني يعود في أساسه الى فساد الهيكل الاداري الذي بنيت عليه الدولة في ذلك الوقت والذي يتولى شؤونه طغمة من الناس يتصرفون في رقاب الناس حسب أهوائهم .. وكان النظام الحكومي في عصر الشوكاني يعتمد في تسيير القضايا المدنية على ثلاثة أشخاص وإن شئت قلت أربعة . فأولهم « العامل » وهو الشخص الذي يقوم عن الدولة في جمع الضرائب والجبايات وغيرها ، وهو غالباً ما يستعين في ذلك بالرئيس

الذي يتكفل باستحصال الاموال من الاشخاص التابعين ، ويلي مرتبـة العامل مباشرة منصب « الكاتب » وهو لا يعدو أن يكون تابعـاً للأول . وأخيراً « القاضي » وهـو صـاحب منصب خطير يقوم بمعالجة المشاكل الاجتماعية والدينية .

وقد كان الشوكاني حلل هذه المناصب الثلاثة وبيّن أن فسادها يعـود الى فساد المتولين عليها . يقول : « وقد صار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل ولاية منحصر في ثلاثة أشخاص : عامل وكاتب وحاكم » .

العـــامل :

« فأما العامل فلا عمل له إلا في استخراج الاموال من الرعايا من حلها ومن غير حلها وبالحق وبالباطل وقد استعان على ذلك بالرؤساء » الذين هم العرفـاء المنصوص عليهم من معلم الشريعة أنهم في النار فيسلط كل واحد منهم على مـا تحت يده من المستضعفين فيصنع بـه كما أراد وكيف أحب ، وهو مفوض في أموالهم من طريق العامل فيأخذ ما يشاء ويدفع ما يشاء » .

ومن الغريب أن يحتال هؤلاء العمال في أخذ أموال الناس بأن يأخذ أحدهم قدراً من المال في حين تساهل أحد المواطنين عن أداء بعض الفرائض الشرعية « فيأخذ في مقابل الصلاة شيء من السحت وهكذا في الأشياء التي هي منكرات كالزنا والسرقة وشرب المسكر اذا وقع بعض الرعية في شيء كان له العقوبة من العامل على ذلك بأخذ شيء من مال من فعل ذلك » .

وهكذا ، فان وقوع بعض المواطنين في مثل هذه المعاصي أحب الى العامل من استقامته لأنه سيكون سبب في حصوله على شيء من المـال « بل وقوع الرعايا في هذه المعاصي أحب الأشياء الى العامل لأنـــه يفتح عليه باب أحد الاموال فيتكاثر عنده الحرام ويتوفر له المقبوض » وقد تجتمع عند هذا العامل بجانب تلك الجرائم الشنعاء جريمة الربا « فيرابي على رؤوس الاشهاد رباءاً بجمعاً

على تحريه ويصحب جماعة من العاملين بالرباء فيأخذ منهم عند الحاجة بالزيادة من الرباء يضيفها على الرعية ويسلط هؤلاء العاملين بالرباء على الضعفاء » . ومع كل هذا « قد يضم عامل السوء الى هذه المخازي مخازي أخرى فينظر منه الرعايا محرمات يرتكبها أو محارم ينتهكها جرأة على الله فيسن للرعايا سنن الشر ويفتح عليهم أبواب الفجور » .

الكاتب :

« وأما الكاتب فليس له من الأمر إلا جمع ديوان يكتب فيه المظالم « الواردات » التي يأخذها العامل من الرعايا ولا تحقيق عليهم ، بل المقصود من وضعه أن لا يكتم من تلك الاموال التي احتاجها والمظالم التي احتفظها حق لا يشاركه فيها غيره ويشاركه بذنبه من ينال منها نصيباً ممن يده فوق يده » .

القاضي :

« وأما ثالث الثلاثة وهو القاضي فهو عبارة عن رجل جاهل للشرع .. فغاية ما يعرفه منه وكيل الخصومة وممارسي الحضور في مواقف الخصومات من مسائل تدور في الدعوى والاجابة وطلب اليمين والبينة وليس له في العلم غير هذا، لا يعرف حقاً ولا باطلاً ولا دليلاً ولا مدلولاً ولا يعقل شيئاً من أمور الشرع فضلاً عن غيره من أمور العقل » .

ويقدم لنا الشوكاني صورة مضحكة لهذا القاضي المزعوم : « ولكنه اشتاق الى أن يدعى قاضياً ويشتهر اسمه في الناس ويرتفع بين معارفه وأهله، فعمد الى الثياب الجيدة فلبسها وجعل على رأسه عمامة كالبرج وأطال ذيل كمه حتى صار كالخرج ولزم السكينة والوقار واستكثر من قول : نعم ويعني ، وجعل له سبحة طويلة يديرها في يده .. ثم يذهب هذا الجاهل البائس الى قطر من الاقطار الوسيعة فيأتي اليه أهل الخصومات أفواجاً فيحكم بينهم بحكم الطاغوت

وهو في الصورة حكم الشرع لأن هذا القاضي المخذول لا يعرف من الشرع إلا اسمه ولا يدري من الشرع شيء بل يجهل حدّه ورسمه .. وكيف يهتدي الى فصل الحكومات بالحق ، جاهل اشترى هذا المنصب كما يشتري ما يباع في الأسواق من المتاع ، فولاية مثل هذا المخذول وتحكمه في الشريعة المطهرة هي خيانة على الله وعلى رسوله وعلى كتابه وعلى العلم وأهله وعلى الدين والدنيا » وهذا القاضي الذي تربع على كرسي القضاء عن طريق الرشوة وهو بدوره متكالب على أخذ الرشوة « بل هو ما دام في هذا المنصب لا هم له إلا جمع الحطام تارة بالرشوة وتارة بالهدية وتارة بما هو شبه التلصص ثم يدافع عن المنصب الذي هو فيه ببعض السحت الذي يجمعه ويتوسع في دنياه بالبعض الآخر » .

شراء الوظائف الحكومية :

وهكذا فان الشوكاني يتعرض في نقده الى أمور خطيرة لعل من أخطرها شراء الوظائف الحكومية ، فهذا العامل الشرير ، يطلب تلك الولاية بالأموال يقدمها من أموال المرابين فيقع في الربا الذي هو من أعظم المعاصي قبل أن يخرج من بيته ويقبض مرسوم ولايته، وقد يكون الذي ولاه عالماً بأن ذلك المال هو عين الربا فيقعان جميعاً في غضب الله ولعنته قبل المباشرة للولاية، واذا كان هذا أول ما يفتتح به هذه الولاية الملعونة فما ظنك بما يحدث بعد ذلك من الظلم والجور والعسف والإهمال » .

الحـــلول :

على أن نظرة الشوكاني للمجتمع ليست كلها قاتمة ، فبجانب أنه شخص الداء فان عنده هنا الحلول وهي في عمومها تحمل نفس النظرة الخيرة التي ينظر بها الشوكاني للمجتمع اليمني .. فيدعو أولاً الدولة الى بذل الأموال في سبيل إصلاح الرعية بنشر التعليم والانفاق عليه . يقول : « والحاصل انه لا خروج لمن كان

قادراً على إصلاح الرعية إلا ببذل الاموال في إصلاح الرعايا وتعليمهم الفرائض.. ويجعل في كل قرية معلماً صالحاً يعلّم أهلها العلوم على الوجه الشرعي ».

ثم يدعو المسئولين في الدولة الى التدقيق في اختيار العمال والقضاة حسب كفاءاتهم وأخلاقهم « وليس على الإمام ووزرائه إلا انتخاب العمال والقضاة وإلزامهم أن يكون معظم اشتغالهم بتدبير الرعايا بما شرعه الله في الأموال والأبدان والدنيا والدين ثم بعد ذلك إلزامهم بذلك من قام من العمال والقضاة فيحسنون الى من قام بهذا الأمر منهم ويبذل فيه وسعه ويقرونه على ولايته ويعزلون من لم يقم به ويبذل فيه وسعه وبهذا يدفع الله الشرور » .

وفي نهاية البحث يربط الإمام الشوكاني موضوع فساد المجتمع وانحلاله بما يصاب به بعد ذلك من كوارث مدمرة تكون سبباً في تلاشيه نهائياً ، يقول مخاطباً السلطات المسئولة من إمام وسلطان « فان من ترك من هو قادر على إصلاحه فهو متعرض لنزول العقوبة مستحق لما أصابه ، فقد سلط الله على أهل الاسلام طوائف عقوبة لهم حيث لم ينتهوا عن المنكرات ولم يحرصوا على العمل بالشريعة كما وقع من تسلط الخوارج في أول الاسلام ثم تسليط القرامطة والباطنية ثم تسليط الترك « التتار » حتى كادوا يطمسوا الإسلام وكما يقع كثيراً من تسليط الفرنج ونحوهم فاعتبروا يا أولي الأبصار » .

ذكريات الشوكاني

عن علماء عصره

الذين تحدثوا عن أنفسهم في الأدب العربي كثيرون جداً . وكتبهم في هـذا المضمار تعد في الذروة الأولى من الأعمال الأدبيـة الحديثة التي تركوها ، وهي تقارب من حيث الموضوع الى ذلك الفن المستحدث في الآداب الأوروبيـة المعروف بأدب الذكريات أو ما يسميه المؤرخون بالتراجم الذاتية .

وفي الأدب العربي ظهرت جملة من هذه الكتب لعل أقدمهـا مؤلّـف داعي الدعاة الفاطمي ، المتوفى سنة ٤٧٠ هـ. المسمى « سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة » . الذي أرخ فيـه لحياته وجهوده السياسية في سبيل نشر الدعوة الفاطمية ، وفي عصره كتب الغزالي (المتوفى سنة ٥٠٥ هـ.) ذكرياته وتطوره الفكري في بحثه « المنقذ من الضلال » .

وبعده جاء أسامة بن منقذ (المتوفى سنة ٥٨٤ هـ.) وأرخ لحيـاته كفارس قضى عمره في جهاد الصليبيين وعملائهم .

ثم تتابعت هذه السيرة الى عصرنا الحاضر وأصبحت فناً محبباً عند أدبائنا الذين أخذوا يكتبون لأنفسهم تراجم كلما استأنسوا بعض الشهرة والأهمية لدى القراء، ومن هنا ظهر مؤلّـف طه حسين « الأيام » ، وملحقاته وكتاب «حياتي» لأحمد أمين ، وكتاب العقاد « أنا » الذي جُمع بعد وفاته ، وغيرها .

أما في الأدب اليمني فان هذه الكتب لم تكتشف بعد ، ولعلنا سنجد في النخل الجيد لمحتويات المكتبة اليمنية العديد من التراجم . ومن كتب هذا الفن مؤلّف بعنوان « سفينة البضايع » أرخ فيـــه صاحبه الأديب علي بن حسن العطاس (المتوفى سنة ١١٧٢ هـ.) حياته وتنقلاته داخل حضرموت ، وهــو مكتوب بلغة ركيكة أقرب الى العامية . وكتاب آخر لا يفوتنا ذكره هنا هو « سيرة حيــاة العلامة علي بن عبد الرحيم باكثير » (المتوفى سنة ١١٤٥ هـ.) الذى ألفه بعد توليه القضاء بمدينة تريم. وكان قد أراد به عرفاناً بالجميل لشيوخه الذين يجلهم ويحترمهم .

ومن الذين أجادوا في الكتابة عن أنفسهم علامة اليمن ومفكرها الإمام الكبير محمد بن علي الشوكاني الذى أتى حديثه عن نفسه نتيجة طبيعية للأسلوب العاطفي الذي عرف به في كل كتاباته ، وهو من النوع الذى يعرف كيف يضع الاستطرادات في موضعها المناسب دون أن يحس بها القارىء . وقلما يخلو أثر من آثاره الكثيرة عن حديث عابر يذكر فيه نفسه وبعض أهل زمانه .

وكانت حياة الشوكاني شغلاً للمؤرخين المتأخرين من أهل اليمن ، فهــو من مواليد سنة ١١٧٣هـ. وتلقى علومه بصنعاء على جمهور من شيوخها مثال العلامة أحمد بن عامر الحدائي وأحمد بن محمد الحرازى وعبد القادر بن أحمد الكوكباني. وقد تولى القضاء العام في سنة ١٢٠٩ وأقطعه الإمام عـــدة اقطاعيات في « وضابة » و « جبل اللوز » و « الرونة » و « سعوان » وغيرها ، وله مؤلفات بلغت المائتين طبع بعضاً منهـــا لكتابه « نيل الأوطار » في ثمانية مجلدات و « فتح القدير في علم التفسير » في خمسة مجلدات ، و « إرشاد الفحول في علم الأصول » و « شرح تحفة الذاكرين » وكتب أخرى لا مجال لذكرها ، توفي سنة ١٢٥٠ هـ.

وقــد قامت شهرة الشوكاني كمؤرخ على مؤلف وحيد لا ثاني له هو كتابه « البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع » الذي قـــدّر له في أواخر

الثلاثينيات بطبعة منقحة تقبلها القراء في كافة أنحاء العالم العربي بالاهتمام، وكانت بمثابة التعريف الأول لعلماء اليمن المغمورين .

والكتاب عبارة عن تراجم لمشاهير العلماء في الحضارة الاسلامية الذين ظهروا بعد القرن السابع الهجري . ولعله أراد بهذا التحديد الزمني تكملة لما انتهى اليه المؤرخ ابن خلكان في (وفيات الأعيان) . وقد تميزت تراجمه بالاقتضاب وعدم الاستقصاء لحال المترجم له حتى انه تختفي الكثير من المعلومات الهامة المتعلقة بحياة من يؤرخ لهم .

وأنت تجد تراجم مستقلة منقولة برمتها من كتب معروفة ككتاب (الضوء اللامع) للسخاوي أو كتاب (مطلع البدور) لابن أبي الرجال دون أن يشير الى ذلك .

على ان المؤلف خالف أكثر المؤرخين الاسلاميين في تقليدهم المتبع من عدم التعرض لتراجم المعاصرين الأحيــــاء وأغرق كتابه بتراجم الشعراء من الذين عاصرهم وشاركهم الزمالة أبان الطلب والدراسة . ولم يمنعه علوه كأستاذ من التعرض لحال النوابغ من تلامذته . وأغلب هــــذه التراجم أتت ناقصة لعدم استيعابها ضبط الوفاة التي يعتني بها المؤرخون .

ولا يخلو حديثه عن معاصريه من تلميح شيق يفسر نظرة الشوكاني لأهل زمانه كما لا يعدم ذلك الأسلوب الذى يبدع فيه صاحبه بتصوير حيــــاة الناس وطبيعة المجتمع الذي عاشه . وقد جعل من ذاكرته وخياله الخلاق المصدر الرئيسي لما كتبه بعد أن افتقد المراجع التي تؤرخ من يترجمهم . وهذا ما نصطلح على تسميته بـ (ذكريات الشوكاني) .

وقبل الدخول في نقل هــــذه الذكريات من مؤلفه (البدر الطالع) السابق الذكر . نقف قليلا عند أهم المصادر التي يمكن أن نعدها مراجع رئيسية عن حياة الشوكاني ، فقد عنى بأخباره جماعة من المؤرخين على رأسهم أولئك الذين

أدركوه خلال المائة الثالثة عشرة كالمؤرخ محمد حسن الشجني المتوفى ١٢٨٦ هـ. الذي أفرده بمؤلف ضخم اسماه (التقصار في جيد علامة الأمصار) والمؤرخ لطف الله جحاف المتوفي سنة ١٢٤٣ هـ. في كتابه (درر نحور الحور العين) الذي أتى حديثه عنه بمناسبة توليه القضاء سنة ١٢٠٩ هـ. ومن تراجمه المطولة ما كتبه الحسن بن احمد عاكش في (عقود الجواهر والدرر في تراجم أعيان القرن الثالث عشر) وكلهم يتفقون في نظرتهم الى الإمام الشوكاني على انـــه العلامة المجدد لزمانه والفقيه الذى أحيا العلوم بعد اندثارها .. في حين أن الشوكاني قد اهتم بترجمتين احداهما في مؤلف خاص بعنوان (أدب الطلب ومنتهى الأرب) وهو مخطوط بمكتبة جامعة الرياض برقم ١١٩٦ والأخرى أوردها ضمن كتابه (البدر الطالع) ج ٢ ص ٢١٤ - ٢٢٤ وفيها يتحدث عن نفسه بصيغة الغايب .

ومما له صلة وثيقة بموضوع الترجمة الذاتية تلك الاستطرادات التي حفل بها كتابه (البدر) ونجدها قد سايرت حياته منذ الطفولة الى أن أصبح شيخاً كبيراً يحتكم اليه الناس في أمور القضاء والدولة .

ذكريات الطفولة :

وأول هذه الذكريات حديث الطفولة وهو موضوع محبب الى صاحبنا طالما ردده في كتبه حيث عاش حياة هانئة سعيدة بلغت عليها الحبور والسعادة وقد بقي له من ذكرياتها انه سأل والده وهو في سن الصغر عن أعلم علماء اليمن في عصره فأجابه انه السيد عبد القادر احمد ، وهذا التساؤل الذي جاء عارضاً في ترجمة المذكور يدل على شغف الشوكاني المبكر بالعلم وأحوال العلماء ، ومما يذكره من طفولته انه شاهد الأديب علي بن حسن العواجي - أحد رجـــال السياسة في عصره - وقد ارتسم في خيـــاله صورته (جميل المنظر تام الخلقة

بهي الشكل حسن الهيئة) يقول : [ولم أجتمع بــه لكوني في تلك الأيام الى الصغر أقرب] .

ذكريات ايام الطلب :

وندخل قليلاً في حياة الشوكاني فنجد طالبنا بها يناقش أساتذته بفهم ثاقب ولا ينسى خلال تقلبه عليهم أن يسبر غور الشخصيات النادرة منهم ويحللها كحسنات يعتز بها في شيوخه ، ولنسمعه يذكر عن أحدهم ، هو العلامة اسماعيل ابن حسن بن احمد المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ. انه (كان يأتي الجامع المقدس .. جامع صنعاء) في أيام الشتاء مع شدة البرد فيقعد للتدريس وقد أثر فيــه البرد مع الحركة تأثيراً قوياً .

أما هو فيذكر عن نفسه انه لم يتأخر عن الدرس في يوم من الأيام ، وقد حدث (أن استمر انصباب المطر في بعض السنين من قبل الفجر الى قريب وقت الظهر وكان معنا درس على الشيخ احمد بن عامر الحدثي وقت الشروق فما تركت الذهاب الى الجامع لعلمي بأن مثل هذا لا يمنعه مع علو سنه ، فانتظرت له في المكان المعد للدرس فلم يأت هو ولا أحد من الطلبة وهم كثيرون فجاء في اليوم الثاني وقال لي: هل أتيت الى هنا ؟ قلت : نعم . قال : لو علمت انك أتيت ما اختلفت) ، ثم تأسف على فوت الدرس .

مع الاصدقاء :

كذلك كان للشوكاني ذكريات مع أصدقائه يفتخر بها ويستعرضها معهم في تراجمه لهم ، فهو مثلاً يستغرب من صديقه علي بن ابراهيم بن علي كثرة النساخة مع اشتغاله بالتدريس « فسألته في بعض الأيام عن هذا فقال انه لا يترك النسخ يوماً واحداً ، واذا عرض مــا يمنع فعل من النسخ شيئاً يسيراً ولو سطراً أو سطرين » . يقول الشوكاني : « فلزمت قاعدته هذه فرأيت في ذلك منفعة

عظيمة » أما صديقه اسماعيل بن يحيى الصعدي (المتوفى سنة ١٢٠٩ هـ.) فله معه خبر طويل ، وقد استضافه مرات في بيته أيام طلبه للعلم ، وكان آخرها تلك التي كانت قبيل وفاته بنصف سنة ، وقد أتى اليه في ذلك اليوم الى منزله بمفرده فأفاد منـــه نصايح ساعدته في تحمل المصاعب التي يلاقيها من أهل عصره ، نستمع اليه يصف لنا ذلك اليوم وما تعلمه فيه :

« وقد دعاني في أيام طلبي الى بيته مرات ويظهر من التعظيم والإجلال ما لا يوصف ، وآخر ذلك قبيل موته بنحو نصف سنة فانه أضافني منفرداً وقد كان اشتغل جماعة في تلك الأيام ما لحظ عليّ بما يقتضيه اجتهادي في كثير من المسائل كما هو دأب أهل اليمن بل دأب جميع المقصرين مع من يتبع الدليل الصحيح من العلماء ، فقال لي رحمه الله ما مضمونه أن في التظهر بذلك فتنة ، وذكر لي قضايا جرت مع السيد العلامة محمد بن اسماعيل الأمير شاهدها وعرفها وما زال يضرب لي الأمثال بكلام رصين وخطاب متين من جملته أن السيد محمد الأمير قد علمت ما ناله من الناس من الأذى بالقول والفعل، ومع ذلك فمعه الوزير فلان والأمير فلان وفلان يقومون بنصره والدفاع عنه ما يكره . وأنت يا ولدي قد انقبضت عن الناس وعكفت على العلم وانجمعت عن الأكابر ثم أن السيد محمد قد كان عند مخالفته في سن عالية في أواخر عمره وأنت في عنفوان الشباب فقد لا تحتمل الناس ما كانوا يحتملونه منه ، وأطال المعنى في هذا الشأن رحمه الله » .

حديث الخصوم :

عرفنا من النص السابق أن الشوكاني أدرك جماعة من الخصوم ناصبوه العداء وأصبح بسببهم في كرب شديد ، وهذا نابعاً من المنهج الذي سنه لنفسه حيث أراد أن يطبق نصوص الكتاب والسنّة دون النظر الى ما جرى عليه العرف

مما أثار عليه حفيظة العلماء المتزمتين الذين أخذوا ويتخذون أنفسهم في معارضته وتحريض العامة ضده ، ولم يكن موقف الشوكاني تجاه خصومه موقفاً صلباً فقد ألف مسامحة المسيئين واختلاق الأعذار الكثيرة لهم ، وهو حينما تعرّض لترجماتهم في كتابه رأيناه ينصف العديد منهم ويذكرهم بالثناء العاطر والأوصاف الحميدة . فمن ذلك قوله في ترجمة احمد بن علي محسن ـ أحد معارضيه ـ ذو فهم جيد وفكرة صحيحة وتصور حسن وإدراك كامل .

وبداية النزاع بينهما أن الشوكاني حضر مناقشة علمية بينه وبين أحد زملائه فتخيل أن أستاذه يميل الى منافسه وأنه هو المحرض له فصار ينسب الى الشوكاني مسائل اجتهادية تثير عليه العامة ، واستعان في ذلك بمسألة وجدها في إحدى كتبه تتعلق بالفرقة الناجية واتهم كل من تمسك بالشريعة المطهرة واهتدى بهدى الرسول وليسوا هم أتباع مذهب معين « فأقام الدنيا وأقعدها وما زال يعرضه ـ أي الكتاب ـ على كل من له اشتغال بالعلم ، فلم يوافقه أحد على ذلك ، فعاد يعرضه على المقصرين والعوام ويوهمهم بأوهام لا حقيقة لها فكادت تثور فتنة » .

أما خصومته الحقيقية فقد كانت مع الشيعة الذين شابوا تعاليمهم ببعض ما عند أهل الرفض فصاروا يسبوا الصحابة ويطعنوا في حق الخلفاء الراشدين، ولم يكتفوا بهذا بل لهم منكرات شهدها الجامع المقدس في عهد الشوكاني ، وكان العوام في صنعاء يقومون بثورات جماعية ضده كتلك التي ذكرها المؤرخ لطف الله جحاف في تاريخه ، بتحريض من بعض العلماء المعارضين للشوكاني . ومبتدأ الفتنة رسالة كتبها الشوكاني بعنوان «إرشاد الغبي الى مذهب أهل البيت في صحب النبي » أذكت حفيظة الغلاة ، وجعلته في موقف حرج يقول :

«وقعت هذه الرسالة بأيدي جماعة من الرافضة الذين بصنعاء المخالفين لمذاهب أهل البيت فجالوا وصالوا وتعصبوا وتحزبوا وأجابوا بأجوبة ليس فيها إلا محض

السباب والمشاتمة وكتبوا أبحاثاً نقلوها من كتب الإمامية والجارودية وكثرت الأجوبة وأكثرها لا يعرف صاحبه واشتغل الناس بذلك أياماً وزاد الشر وعظمت الفتنة فلم يبق صغير ولا كبير ولا إمام ولا مأموم إلا عنده من ذلك شيء ، وأعانهم على ذلك جماعة ممن لهم صولة ودولة » .

وقد أفادته هذه الحادثة حقيقة هامة هي أن بعض العلماء قد يحجموا عن التصريح بأقوالهم المخالفة لما عهده الناس خوفاً من سخط المجتمع عليهم حتى انه قد يؤدي بهم الى موافقة العامة في أخطائهم ، فيقول :

« وكان أهل العلم يخافون على أنفسهم ويحمون أعراضهم فيسكتون عن العامة ، وكثير منهم كان يصوبهم مداراة لهم . وهذه الدسيسة هي الموجبة لاضطهاد علماء اليمن وتسلط العامة عليهم وخمول ذكرهم وسقوط مراتبهم لأنهم يكتمون الحق ، فاذا تكلم به واحد منهم وثارت عليه العامة صانعوهم وداحضوهم وأوهموهم أنهم على الصواب ، فإنا لله وإنا اليه راجعون » .

حياة القضاء :

شارف الشوكاني على الأربعين وها هو في سن ٣٦ رجلا مكباً على العلم وتعليمه ، ويصفه معاصره جحاف بأنه محباً للاجتماع بالصدور من الناس محباً للمعيشة الأنيقة ولبس الفاخر من الثياب مع انسجام طبع ورقة .

أما الشوكاني فيصف نفسه في تلك الفترة بقوله : « كنت إذ ذاك مشتغلا بالتدريس في علوم الاجتهاد والافتاء والتصنيف متجمعاً عن الناس لا سيما أهل الأمر وأرباب الدولة فاني لا أتصل بأحد منهم كائناً من كان ولم يكن لي رغبة في سوء العلوم وكنت أدرس الطلبة في اليوم الواحد نحو ثلاثة عشر درساً مع ما يعرض من نحو الفتاوى ويمكن من التصنيف » .

وبينما هو في هذه المشاغل غارقاً حتى أذنيه إذ يفاجأ بعد موت القاضي

الذي كان قبل الشوكاني الفقيه حسن بن علي حنش سنة ١٢٠٩ هـ. يجند الإمام علي بن العباس (المنصور) يطلبوه للحضور « لم أشعر إلا بطلاب لي من الخليفة (الإمام) بعد موت القاضي المذكور بنحو أسبوع فعزمت الى مقامه فذكر لي أنه قد رجح قيامي مقام (منصب) القاضي ، فاعتذرت له بما كنت فيه من الاشتغال بالعلم ، فقال : القيام بالأمرين ممكن وليس المراد إلا القيام بفصل ما يصل من الخصومات الى ديوانه أثناء اجتماع الحكام فيـــه . فقلت : سيقع مني الاستخارة لله والاستشارة لأهل الفضل وما اختاره الله ففيه الخير » .

ويذهب الشوكاني من عند الإمام وهو مشتت البال بين حبه للعلم والتفرغ له وبين المنصب الكبير الذي يعده به الإمام . وتشاء الظروف أن يفد اليه جماعة من طلاب العلم فيجددوا عزمه في قبول هذا العمل بقولهم : « انهم يخشون ان يدخل في هذا المنصب الذي اليه ترجع الأحكام الشرعية في جميع الأقطار اليمنية مَن لا يثق بدينه » .

وأخيراً بعد كل هذا يقدم على قبول المنصب، ويعترف بأن القضاء أخذ منه جل أوقاته « فقد انهال الناس من كل محل فاستغرقت في ذلك جميع الأوقات إلا لحظات يسيرة قد أفرغتها للنظر في شيء من كتب العلم أو لشيء من التحصيل وتتميم ما كنت شرعت فيه، واشتغل الذهن شغلة كبيرة وتكدر الخاطر تكدراً زايداً ولا سيما وأنا لا أعرف الأمور الاصطلاحية في هذا الشأن، ولم أحضر عند قاض في خصومة ولا في غيرها ، بل كنت لا أحضر في مجالس الخصومة عند والدي رحمه الله من ايام الصغر فما بعدها . ولكن شرح الله الصدر وأعان على القيام بذلك الخليفة حفظه الله ، ما ترك شيئاً من التعظيم إلا وفعله ، وكان يجلني إجلالاً عظيماً وينفذ الشريعة على قرابته وأعوانه بل على نفسه ، وأنا حال تحرير هذه الأحرف في سنة ١٢١٣ هـ. مستمر على مباشرة تلك الوظيفة مؤثر

التدريس للطلبة في بعض الأوقات في مصنفاتي وغيرها، وأسأل الله بحوله وطوله أن يرشدني الى مراضيه، ويحول بيني وبين معاصيه، وييسر لي الخير حيث كان، ويدفع عني الشر ، ويقيمني في مقام العدل ، ويختار لي ما فيه الخير في الدين والدنيا » .

وبهذه الدعوة المباركة نختم حديثنا عن ذكريات الشوكاني رحمه الله .

دور المرأة اليمنية ثقافياً

قليلون من المؤرخين هم أولئك الذين تناولوا تاريخ المرأة اليمنية بإسهاب وبتفصيل ، وكل ما كتب هؤلاء عنها لا يتعدى التراجم القصيرة التي لا تعني شيئاً ، ولكن ذلك لا يعني أن المرأة اليمنية ظلت خاملة بعيدة لا تسهم بشيء ولا تشارك في عمل ، فلقد كان للمرأة اليمنية أمجادها العظيمة ، ونحن نستقي بعض أخبارها من العبارات المقتضبة التي ذكرها مؤرخو اليمن مثال عمارة المتوفى سنة ١١٧٤ م. وعلي بن الحسن الخزرجي المتوفى سنة ١٤١٠ م. ومحمد ابن محمد زبارة في العصر الحديث، ولقد ورثت المرأة اليمنية في العصر الاسلامي تلك الخصائص التي تميزت بها في العصور الأولى واستطاعت أن تشق بها طريقها الى الحكم ومن ثم الى حيث أصبحت تمسك بزمام الملك حتى ظلت اليمن لأزمان طويلة بلد الملكات وعنهن تحدثت الكتب المقدسة كما رأينـــا في قصة الملكة بلقيس ، أما في العصر الاسلامي فقد عرفنا الملكة أروى بنت أحمد كواحدة من أشهر الملكات في الحضارة الاسلامية عامة ، ويلاحظ المؤرخ اليمني عمارة على المرأة اليمنية مؤكداً تميزها بسرعة البديهة وطلاقة اللسان، ويروي لنا قصة تدلنا على ذلك يقول فيها :

« المياسة بنت عرفجة اليمنية أدركتها ولا يحسن الوصف أن يأتي على بعض محاسنها ولقد تزوجها رجل دميم الخلقة من قومها وكانوا يعجبون من دمامته

وجمالها ، وأذكر انها اختصما ذات ليلة الى والدي ، فقال زوجها : اني قـد عجزت عن الاحتمال والصبر على ما أسمعه من كثرة الاعجاب بجمالها وقولها انها ليست من نسائي فان أجرتني منها أجبتها . قال الشيخ والدي : لست أجيراً عليها إلا بأمرها . قالت : أجرتني قبل ما أراد . قال زوجها : فاني خير منك لأنني ... (وذكر في حواره عبارات فاحشة نهمل إيرادها هنا) فلما انتهى قال الشيخ : لا والله ما انقطعت ولا خجلت بل قالت : ردوا عليه فوراً من غير روية انك لم تأت بشيء ولا أفلحت وإنما افتخرت بكذا...(وأتت بألفاظ لا نريد ايرادها هنا كذلك) .

والحديث عن المرأة اليمنية متشعب الأطراف ، ويقتضي بحثاً مفصلاً تقف عنده صفحات هذا الكتاب ، وفيما يلي سوف نتتبع المرأة في عصورها المتأخرة منذ القرن السابع للهجرة حتى القرن الثاني عشر ، معترفين بأنها مرت بأدوار أكثر ازدهاراً من هذه الفترة في العصرين الصليحي (٤٣٩ هـ. وحتى ٥٣٢ هـ.) والعصر الرسولي (٦٢٦ وحتى ٨٥٨ هـ.) . (وللمؤلف كتاب « معجم النساء اليمنيات»)

صفية بنت المرتضى :

هي احدى نساء اليمن البارزات ذكرها المؤرخ زبارة نقلاً عن مصادره القديمة ، وذكر انها اشتغلت بالعلم من أول عمرها ، وكانت قد درست على يد والدها المرتضى بن الفضل علم الفقه والأصول العربية ، ولم يكن لها من شغل غير العلم والبحث فيه ، وكانت فصيحة نسخت بخطها كتباً كثيرة ، ولقد تزوجت بعد أن بلغت الثلاثين من عمرها من العلامة اليمني محمد بن يحيى القاسمي لا رغبة في الزواج وإنما رغبة في الاستمرار في العلم والاطلاع في علم الكلام في حين أخذ عنها زوجها علم النحو الذي برزت فيه أكثر من غيرها، ولقد تصدرت للتدريس والفتوى في الأمور العلمية ، ولها كتابات جيدة منها « رسالة الجواب الوجيز على صاحب التجويز»ورسالة في نصيحة ابنتها حورية بنت محمد بن يحيى القاسمي.

ولما وصل العلامة المهدي علي بن محمد الى بلدها (هجرة السودة) كانت تراجعه في كثير من مسائل العلم حتى قال عنها : « انها فائقة نساء زمانها خارجة عن النظراء والأشباه » . ولقد وصلت اليه منها رسالة مطولة في مسائل علمية .. أما وفاتها فقد كانت في قريتها السودة عام ٧٧١ هـ. الموافق ١٣٦٩ م.

فاطمة بنت المرتضى :

يذكر المؤرخ اليمني زبارة بقية نسبها وهي فاطمة بنت المرتضى بن الفضل فيقول عنها انها كانت عالمة عصرها وقد سمعت عن كثير من العلماء . وتوفيت سنة ٧٦٤ هـ. الموافق ١٣٦٢ م.

فاطمة بنت علي بن محمد :

كانت امرأة عالمة على درجة من الصلاح والتقوى ، فكانت أولاً في بيت أبيها ثم في منزل أخيها الناصر صلاح بن محمد إمام اليمن في عام ٧٧٢ هـ. وحتى ٧٩٣ هـ. وظلت منهمكة في العبادة والاصلاح الاجتماعي، وتزوجت من ابن عمها ابراهيم بن يحيى ثم طلبت الانفصال عنه،وكان أخوها الإمام الناصر يعتمد عليها في أمور خاصة بدولته لكمال عقلها ورجاحته . وكانت وفاتها عام ٧٧٣ هـ. وقد رثاها أحد شعراء عصرها فقال :

أمير المؤمنين أخوك فينا ... وأنت أميرة للمؤمنات

دهماء بنت يحيى المرتضى :

ومن نساء اليمن الخالدات كانت دهماء بنت يحيى المرتضى التي عرفت بقدرتها في التأليف ، وهي من أكثر نساء اليمن في التصنيف ، وكانت قد تلقت علومها عن أخيها الهادي بن يحيى وأخيها العلامة الكبير أحمد بن يحيى المرتضى ، ولها مؤلفات كثيرة منهـا كتاب « الأنوار في شرح كتاب الأزهار » لأخيها أحمد

ابن يحيى المرتضى في أربعة مجلدات، وكتاب شرح منظومة الكوفي في المواريث، وكتاب شرح منتهى ابن الحاجب في الأصول، وكتاب الجواهري في علم الكلام. وقد ظلت تواصل نشر العلم في مدينتها « ثلا » ، فلما أراد أخاها محمد بن يحيى المهدي قدومها مع أهله الى حراز توسل اليه أهل بلدته لابقائها عندهم والاستعانة بها واستعانوا بذلك بالفقيه يوسف بن أحمد بن عثمان فأجابهم الى طلبهم بعد إلحاح وكان محمد بن ابي الفضل قد تزوج بها وأنجبت له ولداً أسماه (ادريس بن محمد) ولكنها توفيت سنة ٧٣٧ هـ. الموافق ١٣٣٦ م. في مدينتها (ثلا) .

أخوها

فاطمة بنت احمد بن يحيى :

أما فاطمة بنت أحمد بن يحيى فقد كان والدها المهدي أحمد بن يحيى المرتضى من أشهر علماء اليمن عامة ، وعنه تلقت علومها ، ولقد باحثها في « التخضيب بالمفص » فأجابته بجواب مفيد ، فقال عنها :

« ان فاطمة ترجع الى نفسها في استنباط الأحكام الفقهية » وهذه شهادة لها على علو مكانتها العلمية ونبوغها فيـــه ولقد تزوجها تلميذ أبيها المظهر بن محمد بن سليمان إمام اليمن الذي تولى الحكم عام ٨٤٠ هـ. وحتى ٨٧٩ هـ. وإليها كان يرجع في حل المشكلات العلمية ، وكان اذا أراد استشارتها في ذلك دخل اليها وأطلعها على ما يريده ويخرج من عندها حاملاً الحل، وعندها يقول له أصحابه: « ليس هذا من عندَك ولكن انما هو من خلف الستار » . وقد أشار اليها والدها بقوله :

نســـاؤنا فاقت أئمتنـــا في الفضل والتدريس والأخلاق

ولقد توفيت هذه اليمنية العظيمة سنة ٨٤٠ هـ. الموافق ١٤٣٦ م.

فاطمة بنت عبد الله الحزي :

كانت في غاية من الجمال والكمال ولقد قرأت جملة من الكتب منها كتاب (النكت) وبعض كتب أصول الدين ، وشرح ابن هطيل في اللغة العربية ، وتزوجت من الإمـــام شرف الدين وكانت تشاركه في قراءة كتاب « جامع الأصول في الحديث » ويذكر كتاب ترجمتها أنهـــا بليت في أواخر أيامها بأمراض كثيرة عانت منها مدة خمس سنوات حتى توفيت متأثرة بها سنة ٩١٠هـ. وكان ذلك في شهر ذي القعدة ، ولقد رثاهـــا زوجها شرف الدين بقصيدة يقول فيها :

هي النفس حنت من شجاها وأنت ... فمن فيضها تلك الدموع استهلت
وهل ينبغي لي أن أرى اليوم سالياً ... وفاطمة في باطن اللحد سلت
فلبذة قلبي بل سويداء مهجـــتي ... ومطلبي مـــن كل شيء ومنيتي
وما فاطم إلا من الحور أخرجت ... لتعرف قدر الحور ثمـــة ردت

زينب بنت القاسم بن حسن :

اشتهرت زينب بنت القاسم بن الحسن احدى نســـاء اليمن العظيمات التي كانت لهن مكانتهن بأنها من أجمل نساء عصرها وكان لها ولع شديد بأعمال الخير ومراعاة الناس ، وكان يتولى حكم اليمن أيامها الإمام المنصور بن المهدي ، ولقد نزل عندها ، وكان يقصدها وينزل عندها وعند زوجها الأول عبد الله بن يحيى المهدي . وورثت ثروة طائلة وتزوجها بعده يحيى بن محمد بن عبد الله الذي اشترط عليه الإمام المنصور الحسين بن المتوكل مبلغ ٥٠٠ ريال ، فقبل بها وسلمها اليه ، وظلت معه ٤٠ عاماً كانت له خير معين في مهنة القضاء التي كان يشغلها .

ويذكر المؤرخ لطفي جحاف واقعة طريفة تدل على قوة شخصيتها ، فقد لطف الله

حدث ان وقع خلاف بين أبناء الإمام احمد بن المتوكل ولم يستطع زوجها التوفيق بينهم ، فما كان منها إلا أن أرسلت الى إمام عصرها المهدي الباسي صورة الحل فاستحسنه منها فبعث به الى زوجها ليعرف مقدارها .

وحين توفيت سنة ١٢٠٠ هـ. الموافق ١٧٩٣ م. حزن عليها زوجها حزناً شديداً وجمع الناس للقراءة عليها في منزله أياماً ، ثم لم يلبث أن توفي بعدها بسنة واحدة .

زينب بنت محمد الشهارية :

كانت ذات شهرة واسعة وقد تصدى لترجمتها معظم مؤلفي القرن الحادي عشر من أهل اليمن وكانت على مقدرة أدبية تامة ، ولدت في مدينة شهارة ، حيث قطنت بها والدتها أسماء بنت محمد بن القاسم ، وقرأت علوماً كثيرة منها النحو والمنطق والأصول والنجوم والرمل والسيماء ، وكانت لطيفة المذاكرة حصينة المحاضرة تذاكر بالعلوم ولا يمل حديثها ولها شعر قوي المعاني ، وكانت قد تزوجت من علي بن اسماعيل بن القاسم بن محمد المتوفى سنة ١٠٩٦ هـ. وأجرى معها مساجلات علمية ولكنه طلقها وتزوجها بعده طالب بن محمد بن الحسين لكنها لم تجد معه ما يشدها اليه فطلبت منه الطلاق ، وتوفيت عام ١١١٤ هـ. الموافق ١٧٠٢ م. وقد ترجم لها جماعة من مؤلفي اليمن أذكرهم على الترتيب :

١) محسن بن الحسين أبو طالب في كتابه « ذوب الذهب بمحاسن من شاهدت بعصري من أهل الأدب » وفي ترجمته قال عنها : « كانت أعجوبة الدهر في الفضل والعفاف وبدائع الأوصاف ، تزوجها علي بن اسماعيل ففارقها ، ثم تزوجها بعده علي بن احمد ففارقها أيضاً ، فكتبت اليه عند ذلك :

أهكذا كل من قد مل يعتذر ... ويعقب المدح ذم منه يبتكر
أما أنا فلقد حملتني شططا ... بالأمر والنهي فيمن ليس يأتمر
ما كان قصدي لكم إلا مؤازرة ... والسعي في الخير جهدي لست اعتذر

٢) يوسف بن يحيى بن القاسم في كتابه « نسمة السهر بمن تشيع وشعر » وقد أورد لها ترجمة مطولة نقتطف منها قوله :

كانت فاضلة تجلت بالأدب في عصابتها ونظمت ما اشتبه حسناً بقلادتها ولم يدر أشعرها أم وجهها أم حليها أجمل .

٣) احمد بن الحيمي في كتابه : « في طيب السمر » شريعة مصورة وذرة فخار مكنونة أقر الله بها من الأدب عينه ورزقها من الظرف بألا تذكر معه سكينة ولها كلم تتيه على يواقيت الأحجار بالفخر ولآلىء ألفاظ تعد عندها كلمات الخنساء منحوتة من صخر ، فهي ولادة الزمان إلا أنه لم تستغل حجارها تلك .. كانت تلك نماذج من ثناء علماء عصرها لنـــا دلتنا على مكانتها الأدبية .

شعرهـــا :

أما شعرها فلها منه كثير ولكن أحداً لم يعتن به ممن عاصرها ، ولم يُجمَع في ديوان وظل مبعثراً ، وكل ما بقي لنا منه نماذج جاءت أثناء تراجمها في الكتب السابقة ، ومنه ما كتبته الى أحد معاصريها تطلب نسخة من كتاب القاموس للفيروز ابادي :

مولاي موسى بالذي سمك السما ... وبحق مَن في اليم ألقى موسى
أمنن عليّ بعـــارة مردودة ... واسمح بفضلك وابعث القاموسا

ولها في تفضيل مدينتها شهارة على صنعاء هذه الأبيات :

يا من يفضل صنعا غير محتشم ... على شهارة ذاك الفضل عن كمل
شهارة الرأس لا شيء يماثلها ... في الارتفاع وصنعا الرجل في السفل
أليس صنعاء تحت الظهر مع ضلع ... أما شهارة فوق النحر والمقل

وإلى زوجها الأول علي بن اسماعيل كتبت تستعطف :

إن الكرام اذا ما استعطفوا عطفوا ... والحر يغضى ويهفو وهو معترف
والصفح خير وفي الاغضاء مكرمة ... وفي الوفاء لأخلاق الفتى شرف
والعفو بعد اقتدار فعــله كرم ... والهجر بعد اعتراف فعله سرف
عاقب بما شئت غير الهجر أرض به ... فالهجر منك لإخوان الهوى تلف

ومن شعرها :

الامن منصفي من جور خل ... طمعت بأن أنال به رجائي
ليرفع رتبتي ويشيد قدري ... جهاراً غير محجوب الثناء
على ما باعه من دون فتوى ... ولم يسو حظواً من خطائي
ولا سبق له قبــلي بمجد ... وأين تراها أرض من سماء
يساوى بالبغات البار ظلماً ... ولم يدر الظلام من الضياء
فيا مَن قاسني بالصد مهلا ... لقــد قست الثريا بالثراء

ولها غيره شعر كثير اهتم المؤلف زبارة بجمعه في كتابه « نشر العرف » في الجزء الاول ص ٧٠٩ الى ص ٧١٩ .

فاطمة بنت محمد بن أحمد العدينة :

امرأة يمنية شاعرة لم يحدد أحد من المؤرخين وفاتها ، وهي شقيقة الأديبة زينب بنت محمد الشهارية السابقة الذكر .

وقد التقى المؤرخ زبارة بإيراد أبيات شعرية لها الى الإمام المتوكل على الله اسماعيل تستعطفه لما انتهب أحد عماله قطعة أرض لها فقالت :

مولاي بنت رسول الله فاطمة ... تملكت فدكاً قدمـــاً بانحال

فتوزعته فماتت غــير راضية ... على الخليفــة في حكم وإبطال

وهـــا أنا ابنتها سميت فاطمة ... وأنفحتني أمي بعض أموال

وكان في صحة منهـــا وعافية ... وعمرت بعد هذا بعض أحوال

فنازعوني وقالوا لا سبيل الى ... ملكي فانظر أنت في حــالي

وانظر إلى حظ هذا الاسم كيف لقى ... في سالف الدهر ما لاقاه في حال

لا يظلموني أمير المؤمنين وأنت ... والحمد لله فينـــا الحاكم الوالي

ميمونة بنت احمد بن محمد الشامية :

حظيت ميمونة بنت احمد بن محمد الشامية بترجمة قصيرة في كتاب «الاتحاف والأحباب» للمؤرخ اليمني «قاطن» الذي قال عنها انها أخذت عليه النحو والصرف وغيرهما ، وكانت من الفاضلات ، بلغت معرفتها بالفقه والأدب والتاريخ مبلغاً ، ونسخت بخطها كتباً عديدة ، ومضت تواصل مطالعة الكتب ولا سيما كتب الحديث والتفسير وشرعت في نسخ «الكشاف» وكان فيه من الكلام والتفقه ما لا يوصف ، وأنفقت ما حصل لها على المساكين حتى لم يبق لديها شيء ، وكان بعض أقربائها يلومونها على ذلك فلا يزيدها إلا كرماً ، لكن المؤرخ قاطن لم يذكر سنة وفاتها مما يدل على انها توفيت بعده أي بعد ١١٩٩هـ.

الموافق ١٧٨٥ م.

وهذه الترجمة هي آخر مـــا أخذنا عليها من التراجم النسائية لشهيراتنا في اليمن ممن حظين بتلميح كتاب التاريخ وهن لا يمثلن بمجموع ما عرفه اليمن من أديبات في هـــذه الفترة ، ولا شك في أن أولئك المؤرخين لو حاولوا استقصاء تاريخ المرأة اليمنية لبلغ بمجوعهن أضعاف ما ذكرناه هنا .

حوار زوجي:

وقبل أن نختتم جولتنا خلال تاريخ المرأة اليمنية نود أن لا يفوتنا ذلك الحوار الشعري الذي أورده المؤرخ اليمني « زبارة » منسوباً الى احدى زوجات الإمام « شرف الدين » ولكنه لم يصرح باسمها ربما لسهو منه ، وفي هذا الحوار يتضح لنا طبيعة الحياة الزوجية للمرأة اليمنية في القرن التاسع وهي حياة قائمة على تقديس المرأة لزوجها والاحترام التام بينهما، وقد كتبت تلك المرأة شعرها بلهجة عامية وأسلوب مبسط هو أقرب الأساليب الى طبيعة المرأة :

قم يا رسولي على اسم‌الله فسعيك حميد   اعزم وبادر من القصر المنيع المشيد
بلغ سلامي الى المالك رفيع الجناب   وقبّل الكف والمصحف وبلغ كتاب
في طي قرطاس منا ذا الشكا والعتاب   ما له رجع يكثر الغيبة وقلبه شديد
واختار عن بعـــد صنما مسكنه في الجراف
وصار يكثر لنـــا الفرقة مـــع الائتلاف
ولا لنا ذنب عنده يوجب الاختلاف   إلا التوقاف في رسمه على ما يريد
أيا مطهر فلا نرضى بذا الابتعاد   واعطف على‌من يحبك نلت اقصى‌مراد
وانظر الى‌من يقول‌لك في‌صحيح‌المثل   الصاحب الأول أبقى لك ولا به بدل
وقد تحولت في هذا جمل في جمل   هيهات ما دملج الفضة كطوق الحديد

أبا

وتمضي القصيدة تصف وتشكي من ألم الفرقة في جرأة ادبية نستكبرها هنا على المرأة في القرن العشرين، وقد أجاب عليها زوجها بقصيدة طويلة نقتطف منها هذه الأبيات :

أو في نظامك يا غنيــــج يا هويد يشـــابه الزهر والدر النظـــيم
وفيه أنفاس من عرفك يذيب الحديد فكيف قلبي وهو لك من أذل العبيد
والله يا نور عيني يا مشيق القوام ما قط أنساك في يقظة ولا في منام
والحب باقي للأول يا غنيج يا نحيف وقد صح عندي بأنك للهراكيل سيد
يا مخجل الغصن أو ما ماس قده وماد يا من محلك وحبك في صميم الفؤاد
والله ما لي بغيرك يا خليلي وداد بل ثوب حبك على مر الليالي جديد
وكيف أنساك يا حالي الحلا والحلل يا مخجل الظبي الأحوى بالعنق والمقل

الكوكباني ومخطوطته « طوق الصادح »

أظهر المؤرخون اليمنيون ، في العصور الأخيرة ، التي لحقت القرن العاشر الهجري وما بعده اهتماماً ملحوظاً في كتابة التراجم ، وانشغل الكثير منهم بتدوين الموسوعات الضخمة التي تعنى بمشاهير اليمن على مختلف تخصصاتهم كما رأينا عند ابن ابي الرجال (١٠٩٢ هـ.) في « مطلع البدور » ويحيى بن الحسين (١١٠٠ هـ.) في « طبقات الزيدية الصغرى » وابراهيم بن القاسم (١١٥٢ هـ.) في « طبقات الزيدية الكبرى » وغيرهم .

وهي كتب تجسمت فيها الروح العلمية البحتة وأصبحت في حاجة الى ذوق ادبي يعصم القارىء عن الملل والعزوف عنها . ومن ثم كان ظهور نمط آخر من كتب التراجم يخلط بين الناحية الأدبية والناحية التاريخية ، ويجعل من المادة البيانية العنصر الرئيسي التي يعتمد عليها .

ولهذا الاتجاه بداية نرجعها في الأدب اليمني الى الأديب يوسف بن علي بن هادي الكوكباني المتوفى في سنة ١١١٦ هـ. الذي ألف كتابه «الطوق الصادح». وحذا فيه طريقة الثعالبي في « يتيمة الدهر » التي تعتمد اساساً على السجع مع ايراد نبذ من شعر المترجم له دون اهتمام يذكر بالجانب التاريخي لحال المترجم . وكان للثعالبي تأثير كبير على مَن اتى من بعده رأيناه في الذيول العديدة التي وضعت لكتابه ، إلا أن تأثيره على اهل اليمن جاء متأخراً ، وقد انحصر على

انتاج اهل القرن الحادي عشر الهجري ومن اتى بعدهم . ونذكر منه على وجه الخصوص كتاب الكوكباني السابق الذكر ، وكتاب « صفوة العاصر في أدب المعاصر » للقاسم بن الحسن بن مطهر الجرموزي ، وكتاب « طيب السمر في اوقات السحر » للحيمي المتوفى سنة ١١٥١ هـ.

وكتاب « الطوق الصادح » وإن كان يختلف عن الكتابين السابقين من حيث الموضوع إلا أنه محاكاة خالصة لهما في المعالجة والأسلوب . وقوام هذه الكتب يرجع اساساً الى ثلاث صفات :

١ – الافراط في السجع واستعمال شتى اغراض البديع .

٢ – كثرة الاستطرادات الخارجة عن الموضوع .

٣ – عدم الاهتمام بالناحية التاريخية إلا في نطاق ضيق .

وهذه الخصائص هي اهم سمات المدرسة البيانية في التاريخ او مـــا يعرف بطريقة الثعالبي ومن حذى حذوه . وسنرى في كتاب « طوق الصادح » صورة متكاملة لهذه المدرسة كما وصلت اهل اليمن .

الكوكباني مؤلف الكتاب :

هو الأديب اليمني الكبير يوسف بن علي بن هادي الكوكباني . وُلد بمدينة شبام من حصن كوكبان ، وتلقى علومه على جملة من شيوخها كالعلامة محمد بن ابراهيم بن المفضل المتوفى سنة ١٠٨٥ هـ. وصلاح بن احمد الرازحي وصحب الأمير الحسين عبدالقادر الكوكباني، والتحق بديوانه سنة ١٠٩٧ وكان مترجمنا احد العلماء الذين نكبوا بظلم الأئمة وسُجن مراراً ، حتى همَّ احد الأمراء في زبيد بقتله ، ثم شفع له وحبسه ظلماً وعدواناً ، فعقب صاحبنا رد فعل نفسي شديد أصيب بعده بمرض كاد ان يشارف فيه على الموت مما دفع امير زبيد الى اطلاق سراحه، وبينما هو في طريق العودة الى صنعاء وقد حُمل على حمار هزيل

سقط من على ظهره وانكسرت يـــده تماماً فتجلد حتى وصل الى مدينته، وبعدها مات.

توفي في يوم الخميس عشرين من ربيع الآخر سنة ١١١٦ هـ. - ١٦٠٧ م. وقد توهم الشوكاني في كتابه « البدر الطالع » حين زعم ان وفـــاته كانت سنة ١١١٥ هـ.

مؤلفـــاته :

١ - « محاسن يوسف » ديوان جمعه من شعره، رأيت منه مخطوطة بمكتبة الجامع في ٤٩ ورقة برقم ٢٢١ ادب.

٢ - « سوانح فكر الأفهام وبوارح فقر الأقلام » نشر العرف.

٣ - « طوق الصادح المفصل بجواهر البيان الواضح » وهو موضوعنا في هذا البحث.

٤ - جمع ديوان ابن نباتة، أورد المؤلف ديباجته في كتابه « الطوق الصادح » يقول في مقدمته : « كنت ألفت شوارده وجمعت شتاته بعد ان رأيته غير كامل في الدياوين التي في ايدي الناس فهي دياوين « هكذا » داخلة في القصور ».

٥ - « البغية المقصودة من السيرة المحمودة »، وهي قصيدة همزية في سيرة النبي ﷺ.

مصادر ترجمته :

أرخت لحياة الكوكباني عدة كتب معاصرة نذكر منها :

١ - ابراهيم بن زيـــد جحاف ١١١٢ هـ. « زهر الكمائم في التراجم » مخطوط بمكتبة المؤرخ زبارة بصنعاء.

٢ ـ قاسم بن حسن الجرمزي ١١٤٦ هـ. (صفوة العاصر في ادب المعاصر) نقل نص الترجمة مؤلف نشر العرف ج ٢ ص ٩٤٤ .

٣ ـ احمد بن محمد الحيمي ١١٥٠ هـ. « طيب السمر في اوقات السحر » مخطوط بمكتبة المتحف البريطاني برقم ٣٤٢٧ .

٤ ـ عبد الرحمن بن محمد الذهبي « نفحات الأسرار المكية في بعض نبلاء البلاد اليمنية » نقل نص الترجمة المؤرخ زبارة في نشر العرف ج ٢ : ٩٤٣ .

٥ ـ ابراهيم بن عبدالله الحوثي ١٢٣٣ هـ. « نفحات العنبر في تراجم اعيان القرن الثاني عشر » مخطوط بمكتبة الجامع .

٦ ـ محمد بن علي الشوكاني ١٢٥٠ هـ. «البدر الطالع» ج ٢ ص ٣٥٥ ـ ٥٧ .

٧ ـ دار الكتب المصرية قائمة الكتب المصورة عن الجمهورية العربية اليمنية ص ٢٨ .

٨ ـ محمد بن محمد زبارة ١٣٨٠ هـ. نشر العرف ج ٢ ص ٩٤٣ ـ ٩٥٠ .

٩ ـ خير الدين الزركلي الاعلام ج ٩ ، ٣٢٠ .

كتاب الطوق الصادح :

لا أعرف من نسخ هذا الكتاب سوى مخطوطتين احداهما بمكتبة الحبشي الموجودة بمدينة الغرفة من المحافظة الخامسة (جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية وهي تقع في ٣٦٥ صفحة مسطراتها ١٦ سطر مقاس١٩ + ٣١ سم وكان الفراغ من كتابتها على يد يس بن علي بن عبد الرحمن المختار يوم الاربعاء عشرين من شهر ذي القعدة سنة ١١٥٨ هـ. عن نسخة المؤلف المكتوبة سنة ١٠٩٥ هـ.

والمخطوطة الثانية في مكتبة الجامع بصنعاء فرغ من كتابتها سنة ١١٤٤هـ.

نقلاً عن نسخة المؤلف في صفحة ٣٤٠ برقم ٢١٨٥ ادب وعنها نسخة مصورة بدار الكتب المصرية .

وقد ورد عنوان الكتاب كاملاً في المقدمة التي وضعها مؤلفه يقول : «وقد وسمته بطوق الصادح المفصل بجواهر البيان الواضح فهو العلو الذي عدم نظيره الخ » . ويظهر ان العنوان غير كافي لتبيين موضوع الكتاب فهو قد شمل على تراجم الأدباء الذين ورد في شعرهم وصف الحمام . ويقول عنه زبارة : « ترجم فيه لمن ذكر الحمام في شعره فجاء كتاباً نفيساً » .

أما المؤلف فقد توسع في شرح غرض كتابه وتبيين هدفه يقول : « وبعد فهذا روض ادب اثمرت اوراقه . واحتوى على ما قيل من النظم البديع في الحمايم والثناء على من اثبت في اعناقها من نظم الحسن مباسم . والذي حداني الى جمع ما قيل في الحمايم ما كنت قلته من نظم في الحمايم » . وكان قد حصره اولاً على ايراد الشعر الخاص بالحمام ، لكنه رجع عن هـــذا الحصر وتوسع في ترجمة الشاعر ، وذكر نبذ من شعره الخارجة عن موضوع الحمام يقول: « وكنت نويت الاقتصار على ما قيل في الحمايم فرأيت من التنويه بأدب الناظم فأوردت لكل من نظمته في سلك هذا الطوق » . ثم هذه الاستطرادات التي غص بها الكتاب ويعترف بها الكاتب ويرى انها من الاشياء المستحسنة « وربما استطرد اشياء بديعة يزين بها مـــا ارادت من فرايد وغرايب ونظم ونثر استحسنه واستجوده فان الأدب فنون والحديث كما علمته ذو شجون » .

والكتاب مقسم على قسمين : الأول في تراجم الشعراء المتقدمين من غير اهل اليمن . والقسم الثاني في تراجم اهل اليمن الذين ورد في شعرهم ذكر الحمام من المعاصرين للمؤلف .

ومن تراجمه الحافلة في القسم الأول :

« ترجمة الشريف الرضي » ص ١٥ ـ ١٩ .

« احمد بن عبد الله بن سليمان المعري » ص ٧٢ – ٧٩

« عبد الله بن المعتز » ص ٧٩ – ٨٧ .

« ابو فراس الحمداني » ص ٨٧ – ١٠٢ .

« عيسى بن سنجر الحاجري » ص ١٠٢ – ١١١ .

« الشاب الظريف بن العفيف التلمساني » ص ١١١ – ١٢٧ .

« الامير تميم المعز » ص ١٢٨ – ١٥٩ .

« محمد بن محمد بن نباتة » ص ١٥٩ – ١٧٥ .

« ترجمة خليل الدين الصفدي » ص ٢٢٣ – ٢٣٠ .

« ترجمة صفي الدين الحلي » ص ٢٣١ – ٢٣٤ .

« ترجمة شهاب الدين بن حجة » ص ٢٣٤ – ٢٣٩ .

« ترجمة حسن بن محمد البوريني » ص ٢٣٩ – ٢٤٩ .

« ترجمة عز الدين محمد بن عبد الله بن شرف الدين » ص ٢٤٩ – ٢٥٢ .

أما القسم الثاني وهو في تراجم المعاصرين من اهل اليمن ، فإليك اسماءهم :

ترجمة الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد ، ص ٢٥٢ – ٢٦٦ .

« الحسين بن عبد القادر بن عبد الرب الكوكباني ، ص ٢٦٦ – ٢٩٦ .

« ابو الحسن جعفر بن المطهر الجرموزي ، ص ٢٩٦ – ٣١٨ .

« عبد الله بن احمد بن يحيى المفضل ، ص ٣١٨ – ٣٣١ .

« محمد بن الحسين بن احمد الحيمي ، ص ٣٣١ – ٣٣٩ .

« عماد الدين ابو الفضل يحيى بن الحسن ، ص ٣٣٩ – ٣٤٢ .

« ابراهيم بن صالح الهندي ، ص ٣٦٠ – ٣٦٥ .

وبجانب هذه التراجم التي تشكل صلب الكتاب تأتي استطرادات وانتقالات عديدة لا يجمعها جامع ولا يشملها موضوع واحد ، والمؤلف قد يتحدث عن هذه

الاستطرادات بمناسبة او بدون مناسبة احياناً . ولنأخذ من رؤوس هـــذه الانتقالات :

قصة المعتصم مع المرأة الهاشمية ، ص ٥٠ .
مطالع القصايد وإيراد نماذج منها ، ص ٤٩ – ٥٨ .
مخالص الشعراء في قصايدهم ، ص ٥٨ – ٦٧ .
معارضات الشعراء لقصيدة المعري ألا في سبيل المجد ، ص ٧٥ – ٧٩ .
سانحة في إكثار الشعراء في وصف التماثيل ، ص ١٦٣ – ١٦٥ .
قصة سابور مع قيصر ، ص ١٦٦ .
معارضات الشعراء لقصيدة ابن نباتة ، ص ١٧٩ – ١٨٥ .
رسالة محمود بن عساكر الى السبكي ، ص ١٩١ – ٢٢٠ .
قصة الحمامة مع الرازي ، ص ٢٥٠ .

الى غير ذلك من استطرادات يزخر بها الكتاب وهي على رأي المؤلف عاصمة للقارىء من الملل في دراسة موضوع واحد .

حديث المؤلف عن نفسه :

ونجد في أعطاف الكتاب من الاستطرادات المهمة حديث المؤلف الطويل عن نفسه في اكثر من موضوع . فمن ذلك تقييمه لشعره وهو يدل على اعتزاز شديد به . ولعله كان محقاً حيث توفرت في شعره كل عناصر الجودة من رقة الأسلوب وجزالة المعنى ، يقول :

« ونظمي الذي لم تتحل بمثل فرايده خريدة القصر ولا فاه بمثله ناظم ، فلو مر على سمعي ابن سكرة والسمرقندي لأقسما على قصورهما فكم رفعت قدر منشد به ليلة فتوهم انها ليلة القدر وقضاها وجواري الأفق تخدمه والسعد يغازله الى مطلع الفجر وهو لأفخر مما أرويت لنطقه زند فكري الذي لا عيب فيه

لقادح وهززت لرقمه رمح قلمي الذي لا نقد فيه لطاعن ولا جارح فهو معجز يوسف الذي ينقض عنده شعر يزيد وهو منجد في البلاد ومتهم ، وليس ثنائي عليه من التفاخر الذي يفخر به متشبث بل من التحدث بنعمة الله تعالى » .

ويتحدث عن أخلاقه فيقول انه عاش شريف النفس لم يجبلها على سؤال الناس ولا خضعها لهم :

« اني منذ نيطت عليَّ التمايم وميطت لي الغمايم لم أشرق بسؤال ولم أعض بندامة الأمثال ولم أنصب خمائل المدايح لصيد سوانح المانح نافضاً يدي من غبار المطامع قانعاً من الله بما منَّ عليّ من فضله الواسع . وأعتقد ان قبول الجائزة على المدح بما لا يحل في شرع الفضايل الواضح فالجايزة عندي محرمة » .

ذكريات المؤلف مع علماء عصره :

ومما له صلة بحديث المؤلف عن نفسه ذكريات الكاتب مع علمـــاء عصره ، وقد تفرقت في شتى صفحات الكتاب حتى انها تكون في مجموعها بحثاً مستقلاً هو اقرب الى أدب الذكريات الشخصية المعروف في الأدب المعاصر .

ولنستمع اليه يحدثنا عن ذكرياته مع الأديب يحيى بن ابراهيم جحاف :
« وحين كنت مقيماً بصنعاء اليمن جاءتني زهرات الفوايد من رياض علوم لا يذكر عندها خضر الدمن كنت اجتمع بين العشائين انا والسيد عماد الدين يحيى بن ابراهيم جحاف بجامعها الكبير فنتجاذب أطراف الحديث في الأدب ونطلق في سماءها شموساً لا ينكر اثارتها غير ضرير فأخرجتنا في ليلة سوابق المذاكرة من البديع فذكرت له ايهام التوكيد وهو من المحسنات التي شأوها رفيع الخ » . وتحدث بينهما مناقشة في موضوع البديع .

ومن ذكرياته مع يحيى الجحاف ايضاً انه « كتب الى منزلي يوماً اظهر كل قلب لمحاسنه لهو، فلما انصرف نسي غلامه ، وكان يسمى القشر، (دلة) القهوة . فكتبت اليه : يا مولاي صدرت والقشر من بعد الدلة ذاهب اللب لا يجد ذهناً صافياً فكأنما من الكرب هو في جب قار سلو بها فقد أملكه الفرق من العرف فلا يكن جزاءه منكم النار فقد اضحى قلبه كبحر مضطرب ما له قرار والسلام».

من نقـــده :

ونبحث عن نصيب الأدب من هـــذا المخطوط فنجده يتركز في النظرة السليمة التي يسير بها نصوص الشعراء ويستدرك عليهم هفواتهم ومرقاتهم ، فهو حين يسمع الخفاجي في كتابه « ريحانة الألباء » يصف كوكبان بقوله :

وقور على ظهر الفـــلاة كأنه   طوال الليالي مطرق في العواقب
يلوث عليـــه الغيم سود عمايم   لها من وميض البرق حمر ذوائب

هنا يقول صاحبنا في نقد هذه الأبيات : « هذا وصف حسن لكنه لا يبلغ إلى درجة الشهاب محمود (يعني به الخفاجي) فلعمري انه وصف كل لسان بليغ معقود . وقوله : وتتعلق على هامته عصايب الغيوم وهو قول القاضي الفاضل وهامة لها الغمامة عمامة وقوله : عال كان الجن مذ مردت هو لبعض العرب من أبيات يهجو بها اعرابياً كان مفرطاً في الطول وهو هجاء موجع حيث لم يجعله سوى سلم ترتقيه المردة لاستراق السمع ، وكان الأليق بشهاب الدين أن لا يأتي به هنا فإنه لم يخرج عن منهج الذم وإن كان قصده إفراط هذا الجبل في السمو لكن قد رماه بخطة خسف حيث جعله مرقاة للمردة، ولا يخفى ذلك على الفطن اللبيب ، وكان أدباء العصر قد تنبهوا له لكنهم أعرضوا عنه وهو حسن الظن بالسلف وإلا فللمقال فيه مجال » .

وقد يؤدي به نقده الى اصلاح بعض الأبيات الخارجة معانيها عن المقصود كإصلاحه لبيت ابن حجة الحموي :

والجفن في لجة دمعي غدا   من بعده يسبح شهراً فعام

يقول : « لا معنى لسبوح الجفن في لجة الدمع فلو قال :

إنسان عيني في دموعي غدا   من بعده . . . . . .

لحسن وزاد البيت نكتة .

الحسن الجلال ومؤلفه :[1]

« براءة الذمة في نصيحة الأئمة »

يعتبر الحسن بن احمد الجلال من أوائل الشخصيات اليمنية التي تنبهت لفساد الإمامة السياسي وحيفها على الشعب ، فحاول نقدها في العديد من كتبه ، بل بلغ به الإقدام والشجاعة الى أن يضع رسالة مستقلة ينتقد فيها الإمام المتوكل على الله اسماعيل ، مع تقديره له .

ومن ثم لا مناص من ان نعتبر العلامة الحسن بن احمد الجلال من اوائل الشخصيات الثورية التي اشهرت قفاز التحدي في وجه الإمامة وسار في ركبها جمهور الثوار الكبير من عصر الجلال حتى قيام ثورة ١٩٤٨ .

على ان نظرة الجلال لمسألة الإمامة تدخل ضمن عدة نظريات غاضبة لهذا الرجل حاول فيها نقد مجتمعه الذي كان يعيش في دولة لا تدفعه الى الخير ، فكان من نظرياته تلك ان اشهر إنكاره للجبايات الكثيرة التي يأخذها الإمام من عامة الشعب وسخطه الكبير على عامة المثقفين في تقليدهم للمذاهب حتى انه شق لنفسه مذهباً مستقلاً يقـــال انه اختاره من المذهب الظاهري ، الذي اندثرت معالمه منذ القرن الخامس الهجري ، بل ان مسائل هذا الرجل اصبحت مما يشغل بال مجتمه ونجدها مدونة عند المؤرخين المعاصرين له .

[1] منشورة في أوراق يمانية.

يقول المؤرخ يحيى بن الحسين [1] في حوادث سنة ١٠٦٠ وفيها نسب الى الحسن بن احمد الجلال الجنوح الى شيء من مذهب الظاهرية وطريقة ابن حزم (الخ) .

وكل هذا يعطينا دليلا على تلك المكانة التي بلغها الرجل في عصره بحيث ان افكاره غدت مما يؤرخ له بالأيام والشهور .

الحسن بن احمد الجلال :

ولد الحسن بن احمد الجلال سنة ١٠١٣ بمدينة رغافة من صعدة ، ومكث بها مدة طويلة حتى وفاة والدته ثم رحل الى صعدة وأخذ عن علمائها ومن ابرزهم العلامة الحسن بن يحيى حابس . وبعد ذلك رحل الى شهارة ، وأخيراً استقر بمدينة صنعاء فأخذ بها عن علامتها الكبير محمد بن عزالدين المفتي وتزوج بابنته ، وبعد ان انتشر ذكره وقصدته الطلبة من كل ناحية استقر بقرية صغيرة في الجراف (من ضواحي صنعاء) وتفرغ بها لدراسة العلم والتأليف الى ان توفي سنة ١٠٨٤ هـ. ١٦٧٣ م.

وكان الحسن بن احمد الجلال نموذجاً للعالم العامل بعلمه مع زهد وورع ، ويقول احد من عاصره وقد زاره الى منزله في الجراف: « وجدته لابساً عمامة صغيرة من القطن خشنة من حياكة اهل صنعاء يسمونها (ريزه) فقلت له هذه ليست مما تليق بالعلماء امثالك، فقال أوَلم يعجبك هذا ؟ فقد ورثتها عن والدي ثم عن جدي [2] » .

وهكذا ، فان الحسن الجلال عاش حياة زهد وخشونة مع انه كان بإمكانه أن يكسب من علمه الآلاف المؤلفة لو انه ساير سياسات عصره . ويقول

---

(١) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن في حوادث اليمن « مخطوط » .
(٢) زبارة : نشر العرف ج ٢ ص ٥٧٠ .

الشوكاني في ترجمته : « كان له مع أبناء عصره قلاقل وزلازل »[1] . ولعل هذا يعود الى توسع مداركه، فقد وصفه الشوكاني بأنه « بحر متلاطم الأمواج وذهنه كشعلة نار »[2] . ومع ذلك فان الجلال يعترف هو بأنه تعتريه حدة مزاج في طبعه يقول :

قالوا بلغت من العلوم مبالغـا قصرت خطى العلماء عن ادراكها
لو كان فيك سلامة من حدة عين الكمال رمتك من اشراكها
فأجبتهم موسى أحد وقد سما فوق السماء وعـد من املاكها
وبحدة النار استفاض النور في كل الدنـا وعلت على افلاكها

مؤلفـاته :

ترك الحسن بن احمد الجلال مؤلفات كثيرة في مختلف الاتجاهات العلمية ، فقد كتب في علم الفقه والتصوف والكلام والنحو والأدب . ومن هذه الكتب :

ـ كتاب ضوء النهار ، شرح الأزهار ، وهو من أهم كتبه وأوسعها وقد تأثر به كل من تعرض للأزهار بالتمحيص أمثال العلامة صالح بن مهدي المقبلي المتوفى سنة ١١٠٨ في كتابه المنار على الأزهار ومحمد بن اسماعيل الأمير المتوفى سنة ١١٨٢ في « منحة الغفار » والشوكاني في « السيل الجرار » ويقول الأخير في وصف الكتاب « حرر فيه اجتهاداته ولم يعبأ بمن يوافقه من العلماء أو من يخالفه وهو شرح لم تشرح الأزهار بمثله بل لا نظير له في الكتب المدونة في الفقه »[3]. ومن هذا الكتاب نسخة خطية بمكتبة الجامع بصنعاء وأخرى بمكتبة المتحف البريطاني .

ـ فيض الشعاع الكاشف عن الابتداع طبع في القاهرة سنة ١٣٤٨ .

ـ حاشية على القلائد مخطوطة بالجامع الكبير .

---

١ و٢ و٣ ـ الشوكاني ؛ البدر الطالع ج ١ ص ١٩٢ .

- بلاغ النهي شرح مختصر ابن الحاجب في أصول الفقـــه مخطوط بالجامع بصنعاء .
- شرح الفصول في أصول الفقه مخطوط بالجامع ايضاً .
- شرح تكملة الاحكام في التصوف مخطوط بمكتبة الجامع .
- الاغراب بتسيير الاغراب في النحو مخطوط بالمكتبة السابقة .
- شرح الكافية لابن الحاجب مخطوط بالمكتبة السابقة .

كتاب براءة الذمة :

ولعل أخطر كتبه وأهمها من الوجهة الوطنية هو كتابه « براءة الذمة في نصيحة الأئمة »[1] الذي خصصه لمناقشة مسائل انتقد فيها على الإمام المتوكل على الله اسماعيل (المتوفى سنة ١٠٨٧) وقد ذكر المؤرخ يحيى بن الحسين تاريخ تأليف هذا الكتاب فقال في حوادث سنة ١٠٦٦ هـ. « وفيهـــا أنشأ السيد الجلال رسالته براءة الذمة التي استشكل فيها الخروج على يافع وتشعب كلامه فيها الى مسائل مختلفة »[2] .. إذاً فالرسالة قد وضعت لانتقاد حدث تاريخي وقع في عصر المتوكل اسماعيل وهذا الحدث هو إرسال الإمام عسكره الى نواحي من بلدان الجنوب ومحاولة الاستيلاء عليها وضمها الى ملكه، وهذا العمل لا غضاضة فيه لو أنه كان يقصد من ذلك توحيد الشطر الجنوبي من اليمن إلا إنه صاحب بعث الجنود بعض من القسوة وارتكاب أمور تخالف القواعد المتبعة في الحرب . وسنجد المؤلف قد أبان في المقدمة عن هدفه من تأليف الرسالة فقال في المقدمة : وبعد فانه لما التبس في هذه الأعصار الحق بالباطل ولم يفرق بين الحـــالي والعاطل بأدلة الأحكام استشكل الفقير الى الله الحسن بن احمد الجلال

---

(١) حول مخطوطات هذا الكتاب يراجع ما كتبناه في « مراجع تاريخ اليمن » ص ٥٢ .

(٢) يحيى بن الحسين : بهجة الزمن « مخطوط » .

أمرين صدرا في الفتنة (الحرب) بين الإمام المتوكل على الله اسماعيل وبين أهل (المشرق) غفلة من فاعلها عن القواعد العلمية أو وقوفاً مع الواهين تحت كل راية فلم يسعني إلا التنبيه براءة للذمة عن نصيحة الأئمة .. وهكذا كان الدافع الرئيسي لتأليف الرسالة بعض انتقادات على مسلك الإمام المتوكل على الله اسماعيل في حربه مع الجنوب إلا أن هذه الانتقادات قد تشعبت الى مسائل كثيرة تتعلق بموضوع الإمامة من أساسها .

وقد بناه على فصلين رئيسيين :

أولها : اعتراضاته على « ما وقع من أولياء » (رؤساء) الإمام من الإكراه للضعفاء والفقراء على المشاركة بأنفسهم وأموالهم في هذه الحرب .

وثانيها : انـــه ليس للإمام الحق في إلزام الناس بأمور تتعلق بحريتهم المدنية .

وفي هـــذين الفصلين يشرح المؤلف نظريته السياسية حول مسألتي الحرب والاستعانة فيها ومسألة الإمامة .

لا لزوم للاقتتال في اليمن :

أما المسألة الأولى فقد تشعبت الى عدة فصول وفروع وقد عاب في إحداها نظرة الإمام لمفهوم الجهاد ، فالجهاد لا يجب أن يكون إلا لقتال الخارجين عن الشريعة ، وأهل الجنوب كما هو معروف من المسلمين فلا لزوم بأن يقوم الإمام بغزوهم . يقول الجلال : « الجهاد اسم لقتال مَن خالف المجمع عليه من الدين كالكفار والبغاة والضالين وقطاع الطريق وهذا هو جهاد رسول الله ﷺ ولهذا لم يجاهد من نافق أو ذل أو دخل في الجزية من الكفار وإنما هو دافع شر الكفار المحقق والمقدر » . ومن هذا المنطلق الذي سار عليه الجلال في نقده للإمام المتوكل يشجب مسلك هذا الإمام في إرساله جنوداً الى تلك البلاد بقصد

الغزو لهم يقول : « من المستنكر ما وقع مع أهل (المشرق) من قصدهم الى ديارهم وإباحة نفوسهم وأموالهم مع مخالفة السيرة النبوية». ويرى ان هذا الأمر لا يعدو ان يكون نوعاً من البغي المتعمد من قبل الإمام وجنده .

ثم ان الإمام حينما اراد ان يسيّر جنوده الى الجنوب استعان بالمال الذي فرضه على اهالي صنعاء من الأغنياء والفقراء فكان ذلك مصدر تزمر آخر من مؤلفنا الذي نسمعه يقول في كتابه « اما الاستعانة في هذه الفتنة بالمال فليس لها صلة بشيء من الشروط المعتبرة للجهاد فالله المستعان ولقد كشف هذا اما عن عدم علم أو عدم ورع وكلاهما مما شرط للإمامة » .

الامامة في قفص الاتهام :

وقد تفرع عن كل تلك الانتقادات التي وجهها حول مسلك الإمام بغزوه أهل المشرق الى ان يشخص الامامة من اصلها فهو يرى ان الأئمة المتأخرين قد جنحوا بالامامة عن جادتها الأولى وخرجوا بها عن طريق سلفهم الاول ولذا نجده يؤكد في كتابه على عدم الاحتجاج بأفعال هؤلاء الأئمة فيقول : « لا يحتج بأفعال الأئمة المتأخرين ولا من قلدهم إذ ليسوا حجة وإلا لكفانا الاحتجاج بالحاضرين وقد صرح السيد صارم الدين ابراهيم الوزير[1] بأن سيرتهم ليست من السيَر النبوية قال ومن أنكر ذلك فهو جاهل معاند » .

وحينما وجد ان بعض الأئمة قد تكالبوا على جمع المال بواسطة الضرائب العديدة بأن جمعوها من اساليب لا تقبل الشك فى عدم مشروعيتها . كان ذلك مما أكد « تعلق التهمة بالأئمة ونسبتهم إلى الجور والظلم وحب الدنيا التي كان سلفهم قد قام للتزهد فيها لذا فقد اكتفى قدماؤهم فى العقوبات بإتلاف المال دون قبضه لا كمن دنس وجه الإمامة بالأطماع وحقر ذكرها في القلوب والأسماع » .

---

(١) توفي سنة ٩١٤ هـ.

وعلى هذا فهو يرى انه ليس للامام ان يكلف الناس بطاعته حيث ان كثيراً من الأئمة قد انتفت عنهم الشروط المعتبرة للامامة الحقة يقول : « ليس للإمام الالزام بطاعته إكراها ولا على المسلمين جهاد مَن خالفه » .

ثم انه يدحض القول الذي يذهب الى انه « لا يد فوق الإمام » فيرى ان هذا الحق لا يجب ان يكون إلا للشروع فان « يد الشرع فوق كل يد » ويقول: والامام وإن كان حاكماً فالحاكم انما يحكم فيما تولاه لا لما تولاه كالوكيل لا يحكم لموكله ولا يحكم له أيضاً » .

وفي نهاية البحث يرى المؤلف ان الامامة ليست من الأمور التي يجب التكالب عليها ولا تعدو أن تكون محنة على صاحبها فقد كره الشعب ذكر الامامة « وحقرت فى النفوس » . ويقول فى موضع آخر « نعم إنما جعل الله الامامة فتنة للأئمة كنهير طالوت وحيتان السبت » .

ثم يوجه نصحه الى الأئمة فيقول: « ما أحوج الأئمة الى توقي شر الفتن والحذر من مزالقها بإصلاح انفسهم أولاً وإلزامها بآداب العقل والشرع من الورع والعفة والزهد في الدنيا والانتصاف لله لا للنفس وترك الاثرة لأنفسهم وأقاربهم بما لله والسيرة في أمة محمد بسيرة النبي ... فإنما يؤدب الناس من أدب نفسه ومن هنا لا تنفع موعظة ليس بمتعظ في نفسه ومجرد التسمي باسم الامامة لا يجدي ، فقد سمى الله الظالمين « أئمة » قال تعالى : « وجعلناهم أئمة يدعون الى النار » .

وبعد فهذه جولة سريعة في كتاب « براءة الذمة » الذي استلفتني فيه شعور مؤلفه الوطني وشجاعته في تصحيح الأوضاع .

الاهدل ومخطوطته « النفس اليماني »

من التقاليد العلمية المتبعة عند رجال الحضارة الاسلامية أن يدوّن كل عالم مشيخاته وطرقه المختلفة في الرواية والاسناد . وقد برز في هذا الشأن جمهرة من علماء الحديث لعل أشهرهم –فيما أعتقد– العلامة احمد بن علي بن حجر العسقلاني الذي كتب المعاجم الضخمة في اسماء شيوخه ورواياتهم .

وقد ورث أهل اليمن ذلك التقليد المسلوك عند علماء الحضارة الاسلامية ، وقد حفظت لنا المكتبة اليمنية عدة معاجم في تراجم الشيوخ وأسانيدهم ونبغ في كتابتها جمهرة من العلماء نذكر منهم مثلاً : محمد بن احمد مشحم المتوفى سنة ١١٨٢ في كتابه « بلوغ الأماني » والعلامة احمد بن محمـــد قاطن المتوفى سنة ١١٩٩ هـ. في كتاب « قرة العيون في أسانيد الفنون » والمحدث عبد الخالق بن علي المزجاجي المتوفى سنة ١٢٠١ في « نزهة رياض الاجازة المستطابة » ، وهو من أضخم المعاجم اليمنية ، واسماعيل بن الحسين جغمان المتوفى سنة ١٢٥٦ في « السمط الحاوي المتسع مجاله للراوي » ، وعبد الله بن علي الغالبي المتوفى سنة ١٢٩٧ في « المسجد المنظوم في اجازات العلوم » ، وعبد الكريم ابو طالب المتوفى سنة ١٣٠٩ هـ. في « العقد النضيد فيما اتصل به من الأسانيد » . وآخر مَن ألف في هذا الموضوع العلامة والمؤرخ عبد الواسع الواسعي المتوفى سنة ١٣٧٩ في « كتاب الدر الفريد في الأسانيد » المطبوع بمصر .

ومن الذين برزوا أيضاً في علم الحديث وتراجم الشيوخ العلامة المحدث اليمني عبد الرحمن سليمان الأهدل .

الأهدل :

عبد الرحمن بن سليمان بن يحيى بن عمر بن عبد القادر الأهدل ، من أسرة بني الأهدل الشهيرة بنوابغها وعلماءها . وُلد سنة ١١٧٩ بمدينة زبيد ، وتلقى علومه على يد والده العلامة سليمان بن يحيى الأهدل ، ومن شيوخه عبد الله بن عمر خليل وعبد الله بن سليمان وغيرهما .

وقد خلف والده في صدارة العلم بمدينة زبيد فكان ملجأ العلماء والمتعلمين يستمدون منه معلوماتهم ودروسهم ، وكان يعقد الندوات المتعددة في بيته أو في المساجد، وغالباً ما تكون هذه الندوات حول قراءة لبعض أمهات الحديث أو في بعض متون الفقه وشروحها .

وما زال مرجعاً لطلاب عصره حتى أتته المنية في مدينة زبيد سنة ١٢٥٠ وفي نفس السنة التي توفي فيها علامة اليمن محمد بن علي الشوكاني فكم كانت خسارة اليمن في تلك السنة بهذين العالمين .

مؤلفاته :

له مؤلفات تتصل بما عرف عنه وتخصص فيه ، وهو التدريس ونشر العلم بين طلبته ، وكانت كتبه غالباً ما تصنف لغرض وقتي يتطلبه الأمر حال التدريس كشرح متن أو نظم مسألة وغير ذلك مما يقتضيه الأمر الحالي . ومن كتبه التي استطعت التعرف على بعضها :

١ ـ كتاب المنهج السوي حاشية على المنهل الروي . حاشية على شرح المنهل الروي لجده سليمان الأهدل الذي شرح فيه منظومه في مصطلح الحديث . ومن هذا الكتاب نسخة خطية بالمكتبة الاصفية بالهند برقم ٤٢٨ حديث .

٢ ـ حواشي على البيقونية في مصطلح الحديث ، مخطوطة بالجامع .
٣ ـ النفس اليماني (وهو موضع دراستنا هنا) . (طبع بتحقيق المؤلف الحبشي)
٤ ـ بركة الدنيا والاخرى في الاجازة الكبرى ، في جزئين ، مخطوطة بمكتبة الاديب محمد بن حسن اليريمي بصنعاء .
٥ ـ شرح بلوغ المرام في أحاديث الاحكام .
٦ ـ الفتح العلي في سلب الولي ، مخطوطة بحوزتي .
٧ ـ تحفة النساك في شرب التنمباك .
٨ ـ الروض الوريف في استخدام الشريف ، ذيل كشف الظنون ٥٩١ .
٩ ـ كشف الغطاء في مسألة ابن عطاء ، ذيل كشف الظنون ٢ ـ ٣٦٢ .
١٠ ـ فتح اللطيف في شرح مقدمة التصريف ، ذيل كشف الظنون ٢ ـ ١٧٠ .
١١ ـ فرايد الفوايد وقلائد الخرائد .
وله مؤلفات كثيرة غير تلك .

مصادر ترجمته :

كان العلامة عبد الرحمن بن سليمان الأهدل من أعلام القرن الثالث عشر الهجري ، فلا بدع اذا عنى بترجمته كل من أرّخ لأعلام هـــذا القرن . وقد وجدت أحد علماء عصره يهتم بترجمته ويضع مؤلفاً حافلاً بأخباره ومشائخه ذلك هو العلامة المؤرخ سعد بن عبد الله سهيل في كتابه : فتح الرحمن في مناقب سيدي عبد الرحمن بن سليمان ، وهو مخطوط بالمكتبة السعيدية بالهند . أما بقية الكتب التي ترجمت له فهي :

١ ـ محمد بن علي الشوكاني المتوفى ١٢٥٠ : البدر الطالع ١/٢٦٨ .
٢ ـ الحسن بن احمد عاكش المتوفى ١٢٩٨ : الديباج الخسرواني في ذكر أعيان المخلاف السليماني ، مخطوط بمكتبة العقيلي بجازات .
بجازان

(١) ليس للوالد الشوكاني الا ولدان هما علي وأحمد ، أما يحيى فهو أخو الإمام الشوكاني ولا أدري كيف وقع مثل هذا الخطأ للمؤلف ، ولقد صور المؤلف الكتاب وكتب أوراقاً في مقدمته بمثل هذا الخطأ ، ونقل عنه كثير هذا الخطأ . (محمد حسين)

٣ ـ صديق حسن خان المتوفى ١٣٠٧ : ابجد العلوم ٨٦٥ ، طبع بهوبال ١٢٩٥ .

٤ ـ صديق حسن خان المتوفى ١٣٠٧ : التاج المكلل ، ص ٣٣٦ ، طبع حجري .

٥ ـ عبد الحي بن عبد الكبير : فهرس الفهارس والاثبات ١٤٠/٢ طبع فاس سنة ١٣٤٦ .

٦ ـ محمد اهدلي : القول الأعدل في تراجم بني الأهدل ، ص ١٢٤ ، طبع حلب سنة ١٣٥٩ .

٧ ـ محمد بن محمد زبارة : نيل الوطر. ج ٣٠/٢ طبع مصر سنة ١٣٥٠ .

٨ ـ محمد بن محمد زبارة : ذيل أجود المسلسلات ١٦٦ ، طبع ١٣٦٣ .

٩ ـ اسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين في أسماء المؤلفين ٥٥٧/١ تركيا ١٩٥١ .

١٠ـ الذركلي : الاعلام ٧٩/٤ . الزركلي

النفس اليماني :

تسمية هذا الكتاب مستوحاة من الحديث النبوي الذي يقول: « اني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن » واسم الكتاب الكامل هو « النفس اليماني والروح الريحاني في اجازة القضاة بني الشوكاني » .. وكان سبب تأليفه انه قصده ثلاثة(١) من أبناء العلامة الجليل محمد بن علي الشوكاني هم علي بن محمد الشوكاني المتوفى ١٢٥٠ بعد وفاة والده بشهرين وأحمد ابن محمد الشوكاني المتوفى سنة ١٢٨١ ويحيى بن محمد(١). وقد قصده أكبرهم وهو علي بن محمد وطلب منه الاجازة العلمية ، وهي عبارة عن شهادة من العالِم المجيز بأن يروي عنه كتب العلم وأن يقريها . وقد شرح لنا المؤلف هذا الطلب بقوله : أما بعد فقد طلب الاجازة وقد

الوالد

تكرر من سيدي الوالد القاضي علي بن محمد الشوكاني ، فأحجم الحقير عن المبادرة بالاجازة .

ومع هذا والطلب من سيدي القاضي لم يزل متكرراً والأمر الالزامي لم يزل متقرراً فما وسعني بعد استخارة الله عز وجل إلا اغتنام فضيلة طاعة الامتثال . وهكذا كان هذا الطلب سبباً لظهور كتاب جيد في علم التراجم . وقد كان هذا الكتاب موضع حفاوة من قِبل العلماء المتأخرين . فقد أثنى عليه العلامة عبدالحي بن عبدالكريم الكتاني المغربي في كتابه فهرس الصحارى والاثبات، أما العلامة الهندي محمد بن صديق حسن خان المتوفى سنة ١٣٠٧ ، فقد نقل أكثر مادة الكتاب في كتابه « أبجد العلوم » ، حتى ان بعض العلماء ذكر انه لخص منه كتابه هذا وليس بدع ان يقوم هذا الرجل بمثل ذلك المسلك فقد اعتمدت أغلب مؤلفاته على المخطوطات اليمنية التي وصلته واستولى عليها ونسبها الى نفسه كما هو الحال في كتابه « شرح الدرة البهية » وكتاب « تفسير القرآن » و « ارشاد الفحول في علم الأصول » وغيره وهي مؤلفات من تأليف الشوكاني ، فجاء هذا العلامة واختصر في بعض فقراتها وبدل من عباراتها ثم نسبها الى نفسه ، ولعلنا سنعود في بحث آخر لمناقشة هذه المسألة . أما ثالث المثنين على كتابنا هذا فهو العلامة عيدروس بن عمر الحبشي المتوفى سنة ١٣١٤ الذي ردد الثناء عليه في أكثر مصنفاته واعتمد على كتابه في مؤلفه « عقود اللآل في أسانيد الرجال » ويمكن للباحث في هذا الكتاب أن يجده قد ظهر كتاب الأهدل في الصفحات ١٩٢ و ١٩٣ حتى صفحة ٢٥٧ . وعلى هذا الاهتمام من قِبل العلماء بكتاب « النفس اليماني » فان هذا الكتاب يحتل الصدارة في المكتبة اليمنية بما تحتويه من كنوز فذة وقد تعددت نسخه حتى ان نسخ الكتاب طغت على أصل الكتاب الكبير المسمى « بركة الدنيا والاخرى

في الاجازة الكبرى» الذي يقع في مجلدين فاني لا اعرف من مخطوطات هذا الكتاب سوى نسخة واحدة من الجزء الثاني عند الأديب محمد بن حسن اليريمي بصنعاء ، ولعل في مخطوطات تهامة ما يوجد كاملا .

والكتاب مبني على ثلاثة اقسام رئيسية هي اصل مـــادة الكتاب وأساسه ، فقد جعله على ثلاثة اقسام :

القسم الأول في تراجم الطبقة الأولى من مشائخه وهم الذين قرأوا على جده العلامـــة يحيى بن عمر مقبول الأهدل المتوفى سنة ١١٤٧ . والقسم الثاني طبقة العلماء الذين درسوا على العلامة احمد بن محمد شريف مقبول الاهدل المتوفى سنة ١١٦٣ . والقسم الأخير طبقة مشائخ المؤلف الذين درس عليهم ومن ثم يبدو واضحاً ان اصل موضوع الكتاب هو فن التراجم وان كان من حيث التصنيف يدخل ضمن كتب مصطلح الحديث وعلى هذا سار في تقسيمه كل أصحاب المكتبات الخطية ، على اني قد خرجت عن هذه القاعدة واعتبرته في كتابي « مراجع تاريخ اليمن » ص ٣٢٩ من ضمن كتب التاريخ .

رجال الطبقة الاولى :

وهم الذين درسوا على جد المؤلف العلامـــة والمحدث يحيى بن عمر مقبول الاهدل الذي ترجم له في كتابه هـــذا وأثنى وهو أحد العلماء المصنفين من هذه الاسرة من كتبه : القول السديد فيما أحدث من العمارة بجامع زبيد ، ومجموع في الأسانيد ومختصر الدر المنثور في التفسير وغيره توفى سنة ١١٤٧ .

أما تلامذته الذين ترجم لهم والذين رووا عنه فهم :

١ ــ سليمان بن يحيى الأهدل والد المؤلف ، ترجمته من صفحة ١٢ الى ١٩ .

٢ ـ الشيخ عبد الله بن عمر الخليل ، ص ٢٣ ـ ٢٥ .
٣ ـ صفي الاسلام احمد بن حسن الموقري ، ص ٢٥ ـ ٢٨ .
٤ ـ ابو بكر بن محمد الغزالي الهتاري ، ص ٢٨ ـ ٢٩ .
٥ ـ امر الله بن عبد الخالق المزجاجي ، ص ٢٩ ـ ٣٥ .

قال في آخر ترجماته لهم : « هؤلاء المشائخ الذين مر ذكرهم من الطبقة الأولى ممن اجازهم سيدي يحيى بن عمر رحمه الله واجازوني .

رجال الطبقة الثانية :

هم الذين تلقوا على الشيخ العلامة المسند احمد بن محمد شريف مقبول الأهدل المتوفى سنة ١١٦٣ أحد أعلام عصره وقد احتلت ترجمته خمس صفحات من الكتاب عدّد فيها شيوخه ومقرواته واجازاته . وشيوخ المترجَم لهم في الكتاب هم :

١ ـ حسن علي العجيمي ، ص ٣٩ .
٢ ـ احمد بن عمر الحبشي ، ص ٣٩ .
٣ ـ احمد الشبكقي المالكي ، ص ٣٩ ، وغيرهم .

ثم يتعرض لتراجم تلامذة العلامة احمد بن محمد مقبول ، وهم :

١ ـ سليمان بن يحيى الأهدل ، ص ٥٣ .
٢ ـ يوسف بن حسين البطاح الأهدل ، ص ٦٣ .
٣ ـ عثمان بن علي الجيلي ، ص ٦٨ .
٤ ـ عبد الرحمن بن محمد المشرع ، ص ٧٣ .
٥ ـ عبد الخالق بن علي المزجاجي ، ص ٧٩ .
٦ ـ يوسف محمد المزجاجي ، ص ٨٠ .
٧ ـ محمد بن اسماعيل الدبمي ، ص ٨٢ .

قال في آخر هذه الطبقة : « وها هنا انتهى ذكر من حضرني من مشائخي من أهل الطبقة الثانية الآخذين عن العلامة احمد بن محمد مقبول الآخذين عن العلامة احمد بن محمد مقبول الآخذين عن الجد .

رجال الطبقة الثالثة :

يستفتح تراجم رجال هذه الطبقة بقوله : « ونشرع الآن في ذكر أهل الطبقة الثالثة ، وهم مشائخي الذين أخذوا عن شيخنا الوالد سليمان بن يحيى » .

وهؤلاء هم:

١ ـ أبو بكر بن علي البطاح ، ص ٨٦ .

٢ ـ الشيخ باعبود بن جعفر بن علوي ، ص ٨٩ .

٣ ـ يوسف بن محمد البطاح الاهدل ، ص ٩٠ .

٤ ـ الطاهر بن احمد الانباري ، ص ٩٣ .

فئات أخرى من شيوخه :

على ان هؤلاء ليسوا كل شيوخه ، فهناك جماعات اخرى قسمها على أنواع قسم من شيوخه الوافدين الى مدينة زبيد ، وقسم من شيوخه الذين تمت بينه وبينهم الاجازة بالمكاتبة ولم يلتق بهم منهم أهل صنعاء وهم :

١ ـ اولاد محمد بن اسماعيل الأمير ، ص ١٤٨ .

٢ ـ احمد بن محمد قاطن ، ص ١٤٨ ـ ١٧٥ .

ومن شيوخه أيضاً جماعة من أهل الحجاز والحرمين ومصر عدّدهم في كتابه هذا مع ترجمات مختصرة .

اجازات الكتاب :

ومن ضمن ما حفل به الكتاب تلك الاجازات العديدة التي تناثرت خلال صفحاته حتى انها تشكل حيزاً كبيراً وهي تعطي صورة عـــن الأسلوب المتبع في التعليم وأسماء الكتب التي كانت تستعمل في التدريس ونادراً ما تخلو ترجمته من ترجمات الكتاب دون ان يشير الى شيء من تلك الاجازات وفي اكثر الاحيان يوردها بنصها، فمن ذلك اجازة لسليمان يحيى الأهدل وأخرى ليوسف بن حسين الاهدل أوردها المؤلف في أربع صفحات وإجازة لعبدالقادر بن احمد الكوكباني وغيره وغيره.

وفادات العلماء:

وهناك ظاهرة علمية هامة تميز بهـا الكتاب هي عنايته برصد أسماء العلماء الذين زاروا زبيد خلال عصر المؤلف في القرن الثالث مما يعطينا دلالة أكيدة على أهمية مدينة زبيد العلمية حتى في عصورها المتأخرة فقـــد وفد الى زبيد العلامة عبد القادر بن خليل كدك المتوفى سنة ١١٨٩ يقول .

في وصف قدومه الى المدينة – لما وفد الى مدينة زبيد تلقاه علماؤها وأعيانها بالاعزاز والاجلال وازدحم عليه الأفاضل لأخذ الاجازة منه .

ومن العلمـــاء الذين زاروا اليمن خلال القرن الثالث عشر العلامة الصوفي علي بن عمر القناوي المصري الذي كان لمجيئه الى اليمن وقع كبير عند عامة الناس وخاصتهم ، وقد أطنب مؤلفنا في وصف رحلته الى زبيد ، فمن قوله في ذلك :

« تكرر وفوده الى مدينة زبيد والى صنعاء اليمن مراراً عديدة عرفت منها وفادتين وهو في كل وفادة يتلقى بالإجلال والإعزاز ويجتمع في كل يوم الخاص والعام ما دام مقيماً، عالم كثير يقيمون معه الذكر الجهري على طريقته».

ولعل اشهر الوفادات التي شهدها عصر المؤلف تلك التي قام بها الصوفي المغربي احمد بن ادريس ، ومن يدري ان هذا الدرويش القادم من أقصى المغرب يكون له أثر وأي أثر في التاريخ اليمنى ويأتي من أولاده من يؤسس دولة قائمة بذاتهـــا عرفت بدولة الادارسة ، يقول مؤلفنا في وصف زيارته الى زبيد :

« نزل هذا السيد على العبد الحقير وكان نزوله كنزول العافية على السقيم فالحمد لله على ذلك ، وكانت مدة إقامته أولاً عشرين يوماً ، ثم بدا له التوجه الى جهة بندر المخا جهة موزع ، فلما وصل تلك الجهات ازدحم عليه الخاص والعام ، ثم بعد إقامته في تلك الجهات عاد الى مدينة زبيد » .

الدوامغ في التراث اليمني

لم تظهر العاطفة القومية في اليمن ـ خاصة ـ والعالم العربي ـ عامة ـ إلا منذ فترات قريبة تعد بعشرات السنين . مع ان هذه العاطفة وجدت لها متنفساً في أكثر من انتماء يعود بها في نهاية الأمر الى الوطن الأم .

وكان العامل المسيطر على نفسية الرجل اليمني في المجال القومي هو ذلك الانتماء الذي يعود به الى القبيلة والعشيرة ولم يعرف الشعور القومي إلا منذ مئة سنة أو أقل . وقد جاء الشعور بالقبيلة ليسد الفراغ في مجال الوطن والأمة . على ان هذا هو المفهوم العام للوطن والوطنية قبل ظهور القوميات في القرن التاسع عشر ليس في اليمن وحده بل وفي سائر البلاد العربية .

وعلى هذا المقياس سنعتبر كل المفاخرات القبلية والانتماءات المتعددة اليهـــا شعور وطني بحت ، لأن القبلية ليست إلا شعبة من شعب الأرض والوطن الكثيرة .

إلا أن إعادة هذا الانتماء الى القبيلة في عصرنا الحديث، يبدو لي انه ليس له هدف معين بعد تكامل الرؤية الوطنية والقومية ولم نعد في حاجة الى انتماء قبلي بعد تكامل الشعب في أمة واحدة ووطن واحد .

ومن هنا جاء خطأ بعض أدبائنا المعاصرين حينما أرادوا أن يحيوا تلك

النزعات القبلية ، فكانوا كالذين أرادوا أن يوفقوا بين أمرين متضادين .. إذ لا انتماء الى القبيلة بعد وجود الوطن والأمة التي تنتمي اليهـــا كل القبائل والعشائر ، حتى اصبحنا نجد كل من يكتب في هذا الموضوع يكون عرضة للنقد والسخرية .

✓ ولن أكلف نفسي باستقصاء ذلك الهذر المتخلف الذي فاه به بعض ادبائنا المعاصرين حيث انهم ورطوا انفسهم في مفاخرات قبلية شائنة تنكرها عليهم أمتهم ووطنهم اليمني الواحد .

على ان وجود ظاهرة المفاخرات القبلية في التراث اليمني القديم جاء ليسد النقص في المجال القومي كما أشرنا سابقاً . ومن ثم فالموضوع يشكل جانباً طريفاً والبحث فيه لا شك انه سينير الطريق أمام الدارسين في هـــذا التراث العربي العريق .

المفاخرات القبلية وصلتها بالدوامغ :

وقد حفظ لنا التراث اليمني صوراً من تلك المفاخرات القبلية في القصائد المتعارف عليها باسم « الدوامغ » [1] ، وهي قصائد طويلة يفاخر فيها الشاعر بقومه ومآثرهم .

ويذكر الخزرجي[2] وهو يؤرخ لبداية هذا الفن فيقول :

« إن أول من فتح هذا الباب ونشر صحايف الذم والسباب الكميت بن زيد الأسدي [3] ، وكان قومـــه من بني أسد بن خزيمة متجاورين مع

---

(١) في اللغة « دمغه : شجه حتى بلغت الشجة دماغه » . وانظر « تاج العروس مادة دمغ » .
(٢) الخزرجي : العنقد الفاخر الحسن ، مخطوط .
(٣) هو الكميت بن زيد بن خنيس الاسدي ، شاعر اشتهر في العصر الاموي ، وكان عالماً بآداب العرب وأخبارها وأنسابها ، ثقة في علمه ، منحازاً الى بني هاشم ، كثير المدح لهم ، متعصباً للمضرية على القحطانية . توفي سنة ١٢٦ هـ . « الاعلام ج ٦ ص ٦٢ » .

طي بن ادد [١] فحصل بينهما من المشاحنة في الدار ونال بعضهم من بعض بالقول والفعل، وقالوا في ذلك أشعاراً، وكان شاعر أسد بن خزيمة جرير بن زيد وشاعر طي بن ادد الطرماح بن حكيم[٢] . ثم توفي الطرماح وكان الكميت بن زيد يحب أهل البيت فمدحهم بقصيدة فجمعوا له شيئاً من أموالهم ، ثم قال بعضهم له : لو عملت قصيدة تمدح فيها نزار[٣] لكان حسناً . فعمل قصيدته المشهورة النونية وعدّد فيها مفاخر نزار وتحامل على أهل اليمن في ذلك تحاملاً غير محتمل حق شق عليهم ، فجاوبه جماعة ، منهم دعبل الخزاعي[٤] ، وكان دعبل هجاءاً ، وقـــد ذكر مفاخر قومه من اهل اليمن وذكر عدة من مثالب نزار، وانتشرت قصيدته انتشاراً كلياً وهي التي تسمى « الصادعة » أولها :

أفيقي عن ملامك يا طعينا   كفاك اللوم سن الأربعينا

وهكذا كانت بداية هذا الفن في الأدب العربي مقرونة بالفخار القبلي بين عدنان وقحطان . وقد نشأ أولاً في خارج اليمن حيث تكثر القبائل من قحطان وعدنان ويكون في قربها من بعضها البعض أثر في الاحتكاك والمنافسة بينهما حتى وصل هذا التنافس الى جزيرة الاندلس في أوربا .

يقول المقري في « نفح الطيب » [٥] : « والقحطانية هم المعروفون باليمانية ،

(١) طي بن ادد من بني يشجب من كهلان ، وكانت منازلهم في اليمن ثم انتقلوا الى جبلي اجا وسلمى من بلاد نجد ، فكانت منازلهم من دون فيد الى أقصى اجا الى القريات . « معجم القبائل العربية ج ٢ ص ٦٨٩ » وغيره .

(٢) شاعر اسلامي فحل من طي، ولد ونشأ بالشام ثم إنتقل الى الكوفة واتصل بخالد بن عبدالله القسري ، توفي سنة ١٢٥ تقريباً « الشعر والشعراء ص ٢٢٨ » وغيره .

(٣) نزار بن معد بن عدنان ، جد جاهلي ينتسب اليه ربيعة ومضر .

(٤) هو دعبل بن علي بن رزين الخزاعي، أصله من الكوفة وأقام ببغداد، وكان بذيء اللسان مولعاً بالهجو، هجا الرشيد والمأمون والمعتصم، توفي سنة ٢٤٦ « الاعلام ج٢ ص٨ ».

(٥) ابن المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب « ج ١ ص ١٨٦ ط اوربا » .

وكثيراً ما تقع بينهم وبين المضرية وسائر العدنانية الحروب بالأندلس كما كان يقع في المشرق وهم الأكثر بالأندلس والملك فيهم أوسع » .

نشأة الدوامغ في اليمن :

أما في اليمن فلم تكن هناك منافسة شديدة بين القبائل وان كنا قد رأينا العنصر العربي يتمركز في البلاد ويبدي استياءه لكل ما هو غير عربي حيث كانت شرذمة من بقايا الفرس الذين جاءوا مع سيف بن ذي يزن قبل الاسلام ، فكان أهل اليمن يحتقرونهم غاية الاحتقار، وحدث أن تزوج جماعة من الفرس بنساء من أهل اليمن فأمرهم يزيد بن جرير القسري - عامل المأمون على اليمن - « أن يطلقوا ما بأيديهم من نساء اليمن »[1] .

وقد تمثل هذا الاستياء في ذروته شخص المؤرخ الحسن بن احمد الهمداني الذي أبان في كل كتاباته عن اعتزاز بقحطانيته ومنابذته لكل ما سواهم، حتى كان هذا دافعاً لتعرضه للأذية .

ومن عصر الهمداني يبتدىء تاريخ الدوامغ في اليمن وكتابتها . وكان قد عاصره جماعة من الشعراء ساهموا بدورهم في الجدال القبلي ، ومن هؤلاء جماعة من الأدباء يذكر الخزرجي بعضاً منهم وهم :

١ - زيد بن محمد بن الخطاب العدوي من أولاد عمر بن الخطاب، وكان قد سكن صنعاء في زمن الهمداني .

٢ - الفضل بن باروخ الرومي من موالي الامير اسحاق بن ابراهيم بن زياد المتوفى سنة ٢٧١ .

٣ - الحسين بن علي بن الحسن القاسمي .

---

(١) غاية الأماني ١٤٧ ، وانظر أيضاً بحث الدكتور جعفر الطفاري « الحركات الشعبية في اليمن » بمجلة الثقافة .

٤ ـ أبو أحمد بن الأسد الأسلمي .

٥ ـ أيوب بن محمد اليرسمي .

ونضيف الى ما ذكره الخزرجي فوج آخر من الشعراء أدركوا زمن الهمداني وساهموا في النقاش القبلي وهم :

١ ـ محمد بن جعفر الوقار .

٢ ـ الحسن بن محمد الصرار .

٣ ـ محمد بن الحسن بن دانة .

٤ ـ علي بن محمد السحولي .

٥ ـ علي بن غشام .

٦ ـ أبو عبيد الله محمد بن عبيدة .

٧ ـ محمد بن الحسن الكناعي الحميري .

فهؤلاء هم أعلام الشعر القبلي في عصر الهمداني، وعلى ايديهم كان ظهور فن « الدوامغ » في الأدب اليمني .

ويقول الخزرجي انه لما انتشرت قصيدة دعبل في مفاخرة قحطان انتدب لجوابه رجل من بني عدي [١] هو زيد بن محمد بن الخطاب العدوي وهو رجل قرشي النسب عاش في صنعاء وافتخر في قصيدته للمعدية والأعاجم على اليمن، وفيها يقول :

ألستم مذعنين لابن فضل [٢] ومعطين المقـادة أجمعينا

سما فيكم وقـال أنا نبي فلبيتم وقلتم قـد رضينا

(١) نسبة الى معد بن عدنان ، من العدنانية .

(٢) يعني به علي بن الفضل القرمطي المتوفى سنة ٣٠٣ .

ويقول ابن أبي الرجال [١] : ويسميها غير أهل اليمن « القارعة » . امـا الخزرجي [٢] فيقول عن تسميتها : « وهي قصيدة مشهورة عرفت بالعدوية وسماها الداهية ونال بها من أعراض القوم ما نال » .

فتصدى للرد عليه أولاً الحسن بن احمد الهمداني بقصيدته النونية المشهورة التي أولها :

ألا يا دار لولا تنطقينا فإنا سائلون ومخبرونا

وهي قصيدة طويلة شرحها الهمداني في مؤلف مستقل ونسب هذا الشرح الى ابنه محمد بن الحسن [٣] .

الكلاعي ودوامغه :

وتصدى للرد على قصيدة العدوي أيضاً العلامة والمؤرخ محمد بن الحسن بن محمد بن عبد الله الكلاعي الحميري ، وهو من كبار علماء اليمن ومؤرخيها وله مصنفات في علم التاريخ والأدب ، ووفاته بعدسة . ويذكر له من ترجم له عدة قصائد في المفاخرة لقحطان منها قصيدته المسماة « الكلاعية » وتسمى أيضاً « القاصمة » رد فيها على العدوي وعدّد فيها كثير من مناقب قحطان ومثالب غيرهم وهي في نحو الف بيت أولها :

أبت دمن المنازل أن تبينا إجابة سائلين معرجينا

يقول الخزرجي: « وهي آخر قصيدة قيلت في هذا الوزن الردي» فيما علمت وقد أجاب على منتقدي قحطان وبسط القول في ذلك ثم شرح قصيدته شرحاً مطولاً حسم فيه مادة أقوال المعارضين » .

---

(١) ابن أبي الرجال : مطلع البدور ، مخطوط .
(٢) الخزرجي : المصدر السابق ، مخطوط .
(٣) يقوم بتحقيقها الآن الاستاذ الشاعر احمد محمد الشامي بالاشتراك مع الشيخ حمد الجاسر.
)

وللكلاعي قصيدة أخرى في مفاخرة قحطان بعنوان «القصيدة ذات الفنون» وهي رائية تزيد على ثلثمائة بيت وتشتمل على أنساب حِمْيَر ومفاخرها وأيامها ومآثرها وملوكها وأقيالها وفرسانها وأبطالها وبطونها وأفخاذها، الى غير ذلك، وأولها :

خليلي هل ربع بحقان مقفر تبرأ لشكوى ذي الجوى ويخبر

وفيها يقول :

وناعمة الاطراف مدمجة الحشا لها كفل راب وأهيف مضمر
اذا غمزت في المرط قالت لفتية أنا ابنة قسطنطين في الدور أشهر
تقول أرى في عارضيك بواديا من الشيب لاحت لم تكن قبل تعذر
فقلت لها لا تعجبي للذي به الشيب فؤادي يا ابنة الروم أكثر
اذا أصبحت آباؤك الغلف تنتمي الى آل ابراهيم جهلا وتفخر
ومن عجب الدنيا تكلم جاهل يفاخر قحطان بمن يتنصر

وكان قد أجاب بها على قصيدة الفضل بن باروخ الرومي مولى الأمير اسحاق ابن ابراهيم بن زياد وفيها يفاخر بقومه الروم .

على ان الكلاعي ، شأنه شأن الهمداني ، يتصدى للرد على غير واحد من منتقدي قحطان ، وهم جماعة من أهل صعدة تجمعوا للرد على قحطان ، منهم الحسن بن محمد الصرار وهو من بني دار ابن تميم ، خرج من البصرة الى اليمن أيام ثورة صاحب الزنج ، وإلى هذا الرجل ينسب الكلاعي أكثر ما جاء في قصيدة العدوي ، المشار اليها آنفـاً ، وممن شارك أيضاً في نظم القصائد في مثالب قحطان من المعاصرين للكلاعي الأديب أبو أحمد بن الأسد الأسلمي ، ومحمد بن الحسن بن دانة ونسبه في بني عبد الدار بن قصي بن كلاب من قريش وعلي بن غشام من ثقيف وعلي بن محمد السحولي وكان أجداده من اليهود ثم أسلم.

كل هؤلاء اعتبرهم الكلاعي من المشاركين في القصيدة المنسوبة الى العدوي في هجاء قحطان ونسب لهم قصائد كثيرة [١] .

ونعود الى الهمداني فنجده قد أشار الى ثلاثة أشخاص من منتقدي قحطان وهم: الحسين بن علي القاسمي، وأبو أحمد بن آل الأسد الأسلمي،وأيوب بن محمد اليرسمي ، وكان يتعصب للفرس ، وقد رد عليه الهمداني بقوله :

وأضحت شياطين من فارس   تهمهم حول كمثل النسس[٢]
فكم من ذباب هوى ميتاً   بنهم الهزبر اذا مـــا لبس
ولم أك معتمداً فارســاً   بفخر يجدد لها ما درس
وقد سألهم سائل من أبوك   فقال من اللوم خالي الفرس . . الخ

ومن الذين رد عليهم الهمداني ابن غشام السابق الذكر ، وكان قد هاجاه في المفاخرة بين قحطان وعدنان .

دوامغ متأخرة :

رسخ عصر الهمداني أصول فن الدامغة عند أهل اليمن حتى انـــه لم تكد تأتي فترات ما بعد القرن الخامس إلا والدوامغ تتابع من عصر الى عصر ، وسنتناول هنا بعض من رجال الدوامغ كلا على حدة حسب الترتيب الزمني :

---

(١) الخزرجي ، المصدر السابق .

(٢) جمع نسناس ، وهي دابة وهمية يزعمون انها على شكل إنسان .

ابن خمر طاش :

أبو العباس أحمد بن خمر طاش الحميري ، كان من الأدباء الشعراء ، عاصر ثورة علي بن مهدي (٥٥٣ - ٥٥٤) وله القصيدة الخمرطاشية مدح فيها حِمِيَر واستثار حفائظهم - كما يقول الخزرجي - ويقول : « ومعي قصيدة مشهورة متداولة بين أيدي الناس تقع في نحو ثلثمائة بيت أولها :

تأوب القلب تباريح الجوى	وعاده عائد شوق قد ثوى
وانبعثت في سره بواعث	أذكين في احشائه جمر الغضا
أسى تحاماه الاساة انما	أضنى الاساما تتحاماه الاسا
ولوعة ما أن بلي لاعجها	يطفو على الاحشاء إن قيل انطفا

الى آخرها ، وقد بناها على أسلوب « مقصورة » ابن دريد الشهيرة . توفي وهو مختف في الجبال من ابن مهدي وسنه لا يتجاوز ٢٨ سنة ، وقد شرح مقصورته الأديب أبو الربيع سليمان بن موسى بن علي بن الجون الأشعري المتوفى سنة ٦٥٢ هـ. في كتاب مستقل بعنوان « الرياض الأدبية في شرح الخمرطاشية » ومن هـــذا الكتاب نسخة مخطوطة بمكتبة المتحف البريطاني [١] . وانظر : « نقولات مختلفة من قصيدة الخمرطاشية في العقود اللؤلؤية » .

نشوان بن سعيد الحميَري :

من علماء القرن السادس الهجري توفي سنة ٥٧٣ . وقصيدته الدامغة هي غير القصيدة الحائية المسماة « خلاصة السيرة الجامعة » ، ولم ينسب اليه أحد من القدماء قصيدة دامغة وإنما اعتمدنا في نسبتها اليه على مـــا ذكره البحاثة

(١) انظر كتابنا « مراجع تاريخ اليمن » ص ١٦٩ ط دمشق سنة ١٩٧٢ .

المعاصر الاستاذ عبد الله بن أحمد الثور في كتابه « لمحات من التاريخ والأدب اليمني » ص ٦٥ وأول القصيدة :

ليس المحب عن الحبيب بمقصر كلا ولا هو في الهوى بمقصر

ابن العليف :

مسلم بن العليف، من أدباء القرن السابع ، وكان قد عاصر الشاعر اليمني محمد بن حميَر المتوفى سنة ٦٥١ ، وكانت بينهما منافسة كبيرة ، ولا نستبعد أن يكون لابن حميَر ميول يمنية ، في حين كان مسلم بن العليف يميل الى عدنان ، مع أنــه من المنتمين الى قبائل اليمن ، فهو مسلم بن يحيى بن العليف بن هيس الشراحيلي الحكمي العكي [١] ، ولابن العليف هذا ، القصيدة الدامغة في الفخر لعدنان، أولها :

ما هبت مذ كنت للأحباب مظنونا ولا بثثت من الأسرار مكنونا

وهي قصيدة طويلة تقع في نحو ٦٢ بيتاً .

الفضــــلي :

وناقض قصيدة ابن العليف في الفخر لقحطان الأديب علي بن سليمان الفضلي القحطاني، وهو من عاش بعد عصر ابن العليف،وسمى قصيدته «دامغة الدامغة» ومطلعها :

فخارنا بسيوف الهند يكفينا عن فخركم آل عدنان ويغنينا

وهي في نحو مائة وخمسة وعشرون بيتاً وقف عليهـــا الباحث المعاصر الأديب أحمد بن محمد الشامي ، ويقول في وصفها « انها قصيدة جيدة ولغتها

(١) انظر « الضوء اللامع » للسخاوي ج ٣ ص ١٠٥ .

أعلى من لغة ابن العليف وحجتها أنصع بياناً منها »[1]، وقد نقل نماذج منها من ذلك قول الفضلي :

لم تعرفوا الدين إلا بعدما فتكت بكم صوارم قحطان الميامينا
فعنـــد ذلك أسلتم على وضر خوف المنية لمـــا تسلموا دينا

ويشيد بحب قحطان لبني هاشم فيقول :

أما بنو هاشم طرا فنحن لهم ذاك العبيد وهم حقاً موالينا .الخ

ومن دامغة الفضلي توجد نسخـــة مخطوطة بمكتبة المتحف البريطاني برقم ٢٠٩٢ .

العواجي :

محمد بن عبد الرحمن العواجي ، ترجم له بعض معاصريه ، فقال في وصفه : كان فقيهاً عالماً له في علم الأدب اليد الطولى ومن الفصاحة والقدرة على جزالة القول وبراعة النظم ما اليه النهاية ، وكان قد سكن قرية (نيابة) بالقرب من (عواجة) باليمن واشتغل بالتدريس والافتاء ، واليه انتهت رئاسة الفقه . وهو الذي انتدب للرد على قصيدة ابن خمر طاش .

يقول البريهي : ولما اشتهرت القصيدة التي أنشأها شهاب الدين أحمد بن محمد ابن خمرطاش التي أولها :

ثاور القلب تباريح الجوى وعاده عائد شوق قد ثوى

ومدح فيها قحطان ويعرب والأوس والخزرج من الأنصار وذم قريشاً ، انتدب للجواب عليها جماعة منهم الفقيه محمد بن عبد الرحمن العواجي الذي رد

---

(١) أحمد محمد الشامي « دامغة الدوامغ » ص ٥٠ .

على ابن خمرطاش في قصيدة مقصورة سماها «النفحة الرحمانية والدرة العدنانية» وفيها يمدح قريشاً ويذكر جودهم ، ثم هجا فيها غسان ومن ينتمي الى قحطان ويعرب وغيرهم ، وهي في نحو ستمائة بيت فرد عليه فيها المؤرخ علي بن الحسن الخزرجي .

يقول البريهي : « ولم يستطع العواجي أن يرد عليه خوفاً من السلطان الرسولي الذي ينتسب الى غسان » .

ثم ان العواجي اختفى في رباط مدينة (هقرة) مشتغلاً بالتدريس وإفادة الطلبة ولم يستطع الملك الرسولي أن يمسه بأذى حتى شفع له عنده امير مدينة (هقرة) فقبل شفاعته ولم يعاقب العواجي عند وصوله اليه وإنما قال له : « يا قاضي قطعت الشجرة من أصلها » .

فاعتذر اليه العواجي ، وولاه السلطان الخطابة وولاية القضاء ، ومكث في هذا المنصب حتى أدركته الوفاة سنة ٧٨٠ هـ.

الخزرجي :

أبو الحسن علي بن الحسن الخزرجي شيخ المؤرخين في العصر الرسولي وكان ممن عاصر العواجي السابق الذكر ، وهو الذي تصدى للرد على قصيدته « النفحة الرحمانية » التي عارض فيها القصيدة الخمرطاشية ، فرد عليها بقصيدة طويلة على نفس الوزن والروي وأسماها « الدوحة اليعربية والنفحة الخزرجية » مدح فيها بني غسان وتقرب بها الى الملك الأشرف اسماعيل بن الأفضل الرسولي الغساني .

ويقول البريهي : « ان الملك الأشرف كان يقدر الخزرجي ويحسن اليه » . وقد صدر قصيدته في الرد على العواجي بمقدمة نثرية بليغة فكان ذلك مما زاد إحسان الرسوليين اليه حتى غدا أكثر شعره في الدفاع عن قحطان . وقد قال البريهي في ذلك : « ان الخزرجي نظم الشعر خصوصاً في التعصب لقحطان » . وتوفي الخزرجي سنة ٨١٢ هـ.

ابن الوزير :

الهادي بن ابراهيم بن علي الوزير من علماء اليمن في القرن الثامن وله مصنفات كثيرة في علوم مختلفة وتوفي سنة ٨٢٢ وهو ممن خاض في المفاخرة بين عدنان وقحطان ، وله قصيدة دامغة عارض فيها قصيدة الفضلي أسماها « دامغة دامغة الدامغة » مطلعها :

فخارنا برسول الله يكفينا عن كل فخر وان الانبياء فينا

الشهاري :

وأخيراً دامغة الشهاري ، وهو من علماء القرن الحادي عشر ، وقد رد فيها على كل من يتعصب لعدنان وقحطان ودعا فيها الى الأخوة الدينية وترك التنابذ والشقاق ، وهي خير ما نختتم بها بحثنا هذا .

أدب القهوة في التراث اليمني

المصادر اليمنية التي تناولت تاريخ القهوة على كثرتها وتعددهـــا لا تزال بعيدة عن متناول الباحثين لأنها داخل المكاتب أو عند الأهالي وفي أصولها الخطية القديمة ، واذكر هنا تلك الكتب التي تعرضت لموضوع القهوة بعض المؤلفات منها :

١ ـ إيناس الصفوة بأنفاس القهوة ، تأليف عبد الرحمن بن محمد العيدروس المتوفى سنة ١١٢٠ هـ

٢ ـ حدايق الأرواح بطرق أهل الصلاح للشيخ عبد الله باسودان المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ.

٣ ـ تفريح القلوب وتفريج الكروب لعمر بن سقاف السقاف المتوفى سنة ١٢١٦ هـ.

وغير هذه الكتب ممن لم يصلني علمه ولا يستبعد عن أهل اليمن تلك الكثرة من المؤلفات التي درست القهوة لارتباط اليمن دون غيرها من البلاد الأخرى ببداية ظهور القهوة . وجميع المصادر التي ذكرناها تتفق على أن متصوفة اليمن هم السابقون الى اكتشافها . فالمؤرخ العيدروس في « إينـــاس الصفوة بأنفاس القهوة » يذكر قصـــة خرافية عن الشيخ المتصوف علي بن عمر الشاذلي اليمني المتوفى ٨١٣ هـ. تدلنا على بداية ظهور القهوة . يقول :

« نقل الشيخ الاستاذ الاعظم السيد شاه بن محمد المكي في رسالته الفارسية في القهوة عن كثير من فضلاء المخاء واليمن المعتبرين الاثبات انه وقع فساد من الجن بالمخاء بأخذهم كثير من صبيانهم فاذا كبروا ردوهم فيسلوا عن بيوتهم وأهليهم فلا يعرفهم أحد فينشأ بسبب ذلك نزاع شديد ومخاصمات فألجأهم الشأن الى الاستعانة بالشيخ علي بن عمر الشاذلي فاختلى نفع الله به لدفع هـــذا الهم فلما كملت اربعين يوماً خلوته رأى النبي ﷺ فعرض عليه الواقع ، فقال : مر الناس أن ينبتوا شجر البن في بيوتهم يدفع الله تعالى عنهم الفساد والخصام . فقال الشيخ علي: من أين نعرف ذلك الشجر يا رسول الله ؟ فقال: هو بأرض الحبشة. ومد يده وأخذ غصناً مورقاً مثمراً وناوله الشيخ ، فاستيقظ وهو في يده ، فحمد الله وبرز من خلوته وأخبر الناس بأمر رسول الله ﷺ وقسم بينهم تلك الشجرة فتسارعوا اليه واعتقدوه وأنبته الشيخ بجانب عزلته ، فلما رأى ثمره أخذه وطبخه وشربه فوجد فيـــه روحنة ونشاطاً فأمر بذلك مريديه حتى ظهر وانتشر » .

✓ أما المؤرخ عبد القادر العيدروس فيذهب الى أن الناس كانوا يستعملون البن ويرمون بالقشر وهو الغلاف المحيط باللب ، فلما جاء الشيخ علي الشاذلي طبخ القشر مع البن ، ومن ثم عرف عنه الناس هذه العادة .

يقول العيدروس في نصه القيم المثبوت في كتابه « الروض الباسم من ربى الشيخ حاتم » :

« أول من أظهر القهوة فنسبت اليه هو الشيخ علي الشاذلي وقد اشتهرت ببركته حتى وصلت الأقطار البعيدة والأمصار النائية ، وكان قبل اتخاذه لها انما يستعمل لب القشر وهو البن ويرمون بالقشر على المزابل فلا يحتفلون به . فقال الشيخ علي : عادهم سوف يحملون القشر الى طرف البلاد ويباع بالذهب والورق » .

ونحن اذا رجعنا الى ترجمة الشيخ علي الشاذلي للمؤرخ اليمني احمد بن احمد ابن عبد اللطيف الشرجي في كتابه « طبقات الخواص » لا نجد أية إشارة الى القهوة بل نتصفح كل التراجم في الكتاب فلا نجد أي ذكر للقهوة مما يوحي لنا أنها لم تكن معروفة في القرن التاسع أو أنها عرفت عند فئات ولم تنتشر بعد .

وبين هذين النصين اللذان يرجعان ظهور القهوة الى الشيخ علي الشاذلي يأتي نص آخر يختلف عنها ، فالعلامة عبد العزيز الزمزمي في قصيدته النونية عن شيوخ اليمن يرجع نسبة القهوة الى شخص من عدن يسمى سعيد الذبحاني (وهو الذي طبخ قشر البن وأبدعه فشرب قهوته) .

وهناك نص آخر قديم غير يمني يرجع ظهور القهوة الى أبي بكر بن عبد الله العيدروس وقد أتى هذا الخبر في كتاب « الكواكب السايرة بأعيان المائة العاشرة » لنجم الدين الغزي المتوفى سنة ١٠٦١ يقول في ص ١١٤ :

« والعيدروس هو مبتكر القهوة. وكان أصل اتخاذه لها أنه مر في سياحته بشجر البن فاقتات من ثمره حين رآه متروكاً فوجد فيه تجفيفاً للدماغ واجتلاباً للسهر فاتخذه قوتاً وشراباً ، وأرشد أتباعه الى ذلك ، ثم انتشرت في اليمن ثم الى بلاد الحجاز وغيرها . توفي العيدروس في القرن العاشر » .

وقبل تركنا هذه الناحية لا يمكن اغفال نص المؤرخ اليمني يحيى بن الحسين المتوفى سنة ١١٠٠ هـ. في كتابه « غاية الأماني » عن ظهور القهوة ، يقول :

« في سنة ٩٥٠ هـ. ظهرت شجرة القات فأمر الإمام شرف الدين بقلعها ثم ظهرت شجرة البن فانتفع الناس بها » .

وفي مادة (ق هـ و) من « تاج العروس » يقول الزبيدي :

« القهوة الخمر .. ثم أطلقت على ما يشرب الآن من البن لثمر شجر باليمن يقلى على النار قليلا ثم يدق ويغلى بالمـــاء وقد سبق لي في خصوص ذلك تأليفاً لطيفاً سميته «تحفة بني الزمن في حكم قهوة اليمن» ولهم في حلها وطبائعها أقوال.

القهوة عند الفقهاء :

عندما ظهرت القهوة لأول مرة كان طبيعياً أن يشك الفقهاء في هذا المشروب فرأيناهم ينقسمون فيما بينهم الى فريقين : فريق يرى تحريمها وعلى رأسهم الفقيه ابن عبد الحق السنباطي وأبو الفضل الكازرني في مصر .

وفريق آخر يذهب الى حلها وعلى رأسهم الفقيه الشيخ زكريا الأنصاري في مصر ، وعبد الرحمن بن زياد ومحمد بن عمر المزجد وعبد الله بن سهل باقشير في اليمن .

ويقال انه لما انتشرت القهوة في مصر ألف بعض الفقهاء من المالكية كتاباً أثبتوا فيه تحريمها ، فاستفتى الناس في ذلك الشيخ زكريا بن محمد الأنصاري ، فأمر بإحضار أحد متعاطيها وأمره بشرب القهوة أمامه ، وأخـــذ يحادثه ويلاطفه ، فلم يرَ عليه أدنى تأثر أو سكر، فذهب الى تحليلها وصنف في ذلك كتاباً .

ويفسر الفقيه أحمد بن حجر الهيتمي ، المتوفى سنة ٩٧٤ ، تحليلها بأسلوب الفقهاء فيقول :

« اختلف علماء مصر ومكة واليمن وغيرها في الشراب المحدث الغريب المسمى بالقهوة فكلٌ قال فيه وألف. والحق انه لا تحريم فيه إلا على من ببدنه علة لا تناسبه كالسوداء المحرقة، واذا أثبت انه لا ضرر به في ذاته فلا خصوصية له بذلك » .

ويقول أبو الحسن البكري في تفسيره « الوسيط » :

« حدث في أواخر المائة التاسعة أن البن الموجود ببلاد اليمن والحجاز يطبخ قشره فيخرج منه ماء أسود يقال له القهوة ، تكلم فيه أناس كثير والحق أنه في نفسه مباح، فان كانت وسيلة للقربة للعبادة صارت قربة كما أفتى به بعض فقهاء زبيد وهو حسن » .

ومن الأشعار التي نظمت في حلها ما أورده العيدروس لأحد متصوفة اليمن. يقول :

أراك تصغي الى قول الذي جهلا	من بعد ما كنت محسوباً من العقلا
وقلت قهوة قشر البن قد حرمت	ولم تجد أبـــداً في شربها خللا
أتعبت نفسك فـــيما لا يفيد فلا	تكن بغير الذي يعنيك مشتغلا
يا طالما شربتها الأوليـــاء وكم	أتت على شربها السادة والفضلا
خاناتهـــا مجلس للذاكرين فلم	تسمع لأصواتها في دانهـــا زجلا
مزاجها مرهم تبقى الشفاء بـــه	وصرفهـــا لقلوب العارفين جلا

ولبعض الشعراء من أهل اليمن في الرد على أهل مصر لما حرموا القهوة :

أهل مصر قد تعدو	والبلاء منهم تأتى
حرموا القهوة جهلا	فحووا ذلاً ومقتا
إن سألت النص قالوا	ابن عبد الحق أفتى
واتركوهم في هواهم	يضربون الماء حتى

القهوة في الطب القديم :

يذكر العيدروس : « من منافع القهوة انها تحلل البلغم والأوخام المنعقدة في البطن كما صح بالتجربة وذلك أن قرية كانت بحضرموت تسمى (الفيل) يعتري أهلها الوخم فتعظم بطونهم وتصير كالجبال وتضيق أنفاسهم وأخلاقهم وهضمهم فلما شربوا القهوة أذهب الله عنهم ذلك » .

أمـــا الشاعر اليمني حمزة الناشري فيحمل فوائد القهوة الطبية في هذه المنظومة الطريفة :

اصدح باسم الله في البدء والملا   مع الحمـــد الذي وحده يملا
وبعد فهذا النظم في البن مبدع   فاحذر به في مدحه إن تحولا
لأني رأيت الناس فيه تنافسوا   وغالوا به في كل جمع تحفلا
كل البن لا تعدل ببنك « تنبلا »   لتعلو بـــه بين الأنام وتنبلا
ولا تعدلن في الـــبن في الأكل « فستقا »
ولا « بندقا » كلا و « لوزاً » و « فوفلا »
فان لأكل البن عندي منافع   روتها ثقات عن ثقات على الولا
فواظب عليه لا تخف شر بؤسه   فما فيه داء قــد عملناه ممثلا
وما هو حار ثم يابس ثم حره   من الدرجات الكل في آخر الأولا
وفيه زوال الهم والغم والكرى   ويذهب فكر في العواقب مقبلا
ويشرح نفس المرء في كل حاله   بتفريحه حتى يرى حزنه انجلا
ويذهب أوصاب العظام بأسرها   ويبرىء عنك البلغم المتأصلا
ويشفي سعالاً بلغمياً معفنـــاً   ويدفعه حتى الغليظ المسعلا
ويصدح باهاً قد تعطل أمرها   إذ العنين منـــه اوجزلا
ومهـــما أبتليتم بالرطوبة انه   لإفراط ترطيب يكون مقللا

√ وقد توسع في شرح خواصها من النظرة الطبية القديمة الطبيب داوود الانطاكي المتوفى سنة ١٠٠٥ هـ. في « التذكرة » ج ١ ص ٧٦ .

آداب طبخها :

في منظومة طويلة للشاعر اليمني الفقيه عمر بن عبد الله بامخرمة المتوفى سنة ٩٥٢ هـ. تعرض فيها لفن طبخ القهوة وما يلزمها حضوره في مجالسها ، فهو يقول :

« اذا أردت طبخ القهوة عليك أولاً أن تبسمل – أي تقول بسم الله الرحمن الرحيم – وتصلي على النبي ﷺ ثم قم بتمهل وقس ما تريد طبخه من القشر ، وبعد ذلك صفه مما قد يختلط به من الغبار والأوساخ ثم احضر النار وضع الماء وعليه البن واتركها فوق النار حتى تعتصر ، وبعد إخراجها احضر لها طيب وجلساء وغير ذلك » .

ولنستمع اليه يجمل كل هذا في منظومته الشعرية :

ان شئت نيل المنى والفتح والظفر … سلم هديت وخل الهم والكدر
وان اردت بلوغ القصد والوطر … لقهوة البن يا ندمان ابتكر

فانهـــا تذهب الاوصاب والمللا … وتنفي الهم والاكدار والكسلا
فكن بها بعد ذكر الله مشتغلا … وحين يدعوك داعيها فكن عجلا

هي رقيـــة لفؤاد بالهموم لدغ … وسلوة لحزين بالغموم دبـــغ
فاحذر مدى الدهر عنها يا أخي تزغ … وخذ شروطاً وآداب لها وصغ

هي قهوة القوم ما اختاروا لها بدلا … ومشرب الصالحين السادة الفضلا
فانهج على نهجهم كي تدرك الأملا … فأول الأمر بسمل ثم صل على

فانهض اليها نشيطاً كي تعد نبل … بهمة ونشاط منك غير كسل
ولا تكن دهشاً عند المقام عجل … وبعد ذاك خذ القشر الرزين وكل
هي قهوة القشر سلوان لمشتغل … وفيه معنى لطيف السر من أول
فخذه منتخباً لا تصغ للعذل … ونقه الآن والقطه على مهل

واعكف على شربها لا تخش تخزية … ولا ملامـــا وتفنيدا وتهزية
فانها لملاك الخير مغرية … وقدر الماء وجر الكيل تجزية

يا مدمناً شربها لا تخشى قط أذى فانما اتخذوها الصالحين غذا
وهاك تكييفها دع عنك ذاك وذا والقشر سدس وماء خمسه واذا

هي تحفة لأولي الألباب والأدب فاعكف عليها تنل ما شئت من ادب
وخذ لها أبا قندرام يابس الحطب وشب نارك وأوقدها بلا لهب

حتى إذا شعشعها النار واعتصرت فارفق قليلا ترى الأسرار حين سرت
ففي أشعتها الأنوار قد بهرت وحين تشرب ذاك النشر وانتشرت

فانشد شذى عرفها حين تنزلها فهو الدواء اذا ما النضج عدلها
حتى اذا نضجت والوقد قلتها فصفها واحذر التسكين فهو لها

واقصد من الأمر عند الشرب أسهله وخذ من الطيب أوفاه وأكمله
وانظر هنا لا من التأثير أجمله في طبع شاربها في البأس الوله

لا بأس بالقند لكن يورث الكسلا مع الرطوبة اما ضد ذلك فلا
لله در فتى بالنصح عدلهـــا وبالقياس وبالتخمين جملها
وان طبخت (شريخا) فهو أفضلها وعندها صلحت للشرب فأدلها

مهذب بصفات الأمجدين حشي سليم قلب بلا ريب ولا دهش
يمحو بنور سناه آية العطش ورح لها واغد في الصيني على فرش

القهوة عند الشعراء :

عندما ظهرت القهوة أول الأمر تبناها الصوفية وبرز فيهم شعراء يكافحون عنهـا ضد خصومهم من الفقهاء . ومن الأشعار التي تنسب الى الصوفية قول علي بن عمر الشاذلي اليمني متغزلاً في حروفها (ق هـ و ه) :

قهوة البن يا أهل الغرام   ساعدتني على طرد المنام
وأعانتني بعون الله على   طاعة الله والناس نيام
قافها القوة والهاء الهدى   واوها الود والهاء الهيام
لا تلوموني على شربي لها   انها شرب لسادات كرام

ويقول الشيخ أبو بكر بن عبد الله العيدروس المتوفى سنة ٩١٤ هـ. في نفس الموضوع :

يا قهوة البن قاف القدس أولك   هاء الهدى ثانيا
والواو ثالثك والهـاء رابعك   من بعدها الالف

أما الشيخ علي بن عبد الله باكثير فيتعرض للقهوة في قصيدة طويلة ضمّنها تغزلاته فيها ومفاخرته بها :

أدر القهوة في كأس البها   واسقني يا صاح
قهوة البن وناهيك بهـا   تنعش الأرواح
هي حلٌّ ما نهى عنها نهي   سرها قد لاح

شنف الكاسات واسمع ما أقول   يا أخا الندمان
انها شرب الأجلاء الفحول   معدن العرفان
أولياء الله أرباب الوصول   لحمى المنان

شيخنا قــد عظمها ولهـا يرتاح
وابنه كنز الهدى أكرمها منه بالأمداح

مــا علينا من عذول جاهل ذاهل غافل
مفتري زور كلام باطل ماله طائل
خــامل الذكر وميت زائل لم يكن عادل

وللشاعر اليمني عبد القادر بن أحمد الحباني :

وصفت لنا يا ابن الأئمة قهوة أوصافها زادت على اخواتها
فرأيتها وشممتها ولمستها وشربتها وسمعت حسن صفاتها
فتلذذت كل الحواس بقربها وبنت على اغصانها نشواتها
وتفتحت أبواب كل مقفل من أمرنا المطلوب عن بركاتها
يسر من الله العظيم تفردت شجر السرور على شجراتها
فسقى الحيا مغدودقاً في رغده وبروقه بالماء قضا غزماتها
متراكماً مترادفاً متواتراً متواصل العشوات أو غدواتها
فلئن سقاها المزن من هطلاته فلقد سقت أهل الغرام ذاتها

الى آخرها.

✓ وفي القرن الثاني عشر الهجري جرت في صنعاء مسابقة شعرية بين الأدباء في تشبيه القهوة في الفنجان وحولها المصطكي، فجمعها بعض الأدباء في كراسة عنوانها «سلافة النشوة في تشبيه القهوة » نقل منه المؤرخ زبارة في نشر العرف بعض الابيات، من ذلك قول الأديب اليمني أحمد بن حسين الكوكباني المتوفى سنة ١١٨١ ، يقول :

وثغر الدهر لما ان تبسم لي ... عن موقف حفل بالملح والطرف
وأحضرت قهوة للأنس جالية ... صار السرور لها والبشر في كنف
وجاء بالكأس من أهواه حين بدت ... مطارف المصطكي تعلوه كالسجن
وقال شبه ولا تأت بما سمعت ... أذناك من كلم كالدر في الصدف
فقلت كالمقلة الشهلا فان بها ... لمن تأمل تمثالاً وليس خفي

وقول الأديب محمد بن اسحاق بن المهدي :

كأنما الفنجان فيه المصطكي ... قد ذاب ثم سال فوق القهوة
بحر من العقيق مدت فوقه ... شباك تبر لاصطياد النشوة

وقول اسماعيل بن محمد اسحاق :

أدرها قهوة الفنجان يطفو ... عليها المصطكي فالهم يذهب
فقد ركب السلو إليك منها ... كميتاً فوقه درعاً مذهب

وقول القاسم بن حسين بن اسحاق المتوفى سنة ١١٦٥ ﻫ :

تناولني الحسناء فنجان قهوة ... حكت وجنتيها عند ضم مشوق
غدا المصطكي من فوقها عند رشفها ... سحائب لاز في سماء عقيق

ويقول عبد الرحمن بن علي بن اسحاق المتوفى سنة ١١٨٧ ﻫ :

دع الراح في الكاسات وادع بقهوة ... يدور بها الفنجان في كف أغيد
اذا سال فيها المصطكي فكأنه ... سلاسل تبر فوق خد مورد

ويقول الأديب مطهر بن اسحاق في نفس المعنى :

خرجت من الحمام شمس ضحى ... فمحا محياهـــا سني البدر
خضبت بحناها اليدين معـاً ... وتختمت بخـواتم التبر
وتناولت فنجان قهوتها ... حمراء عليها المصطكي يجري
فلشابها وتريك إن رشفت ... عنها فصوص زبرجد خضر

ويقول الشاعر محمد بن اسماعيل الأمير المتوفى سنة ١١٨٢ هـ :

أدارت علينـــا قهوة أخرفته ... فتاة كغصن كاد يدنو إلى الأرض
وقد عطرت بالمصطكي قبل كأسها ... فشبهتها والارتشاف به يقضي
كأذيال خود أقبلت في غلائل ... مصبغة والبعض أقصى من البعض

ويقول شعبان السليم :

وساق صبيح جاء يسقي بقهوة ... حلت فجلت عن شاربيها صدى البؤس
فشبهتها والمصطكي قد طغى بها ... زهور شقيق فوق ريش طاؤوس

وقد أفاض زبارة في تشبيهات الأدباء اليمنيين للقهوة مع المصطكي ، وذكر ٢٧ نصاً من الشعر كلها تدور حول هذا الموضوع .

ويظل شعر الصوفية على ضعفه من الناحية الأدبية هو المبرز في أدب القهوة وقد تناولها الشعر الحميني على يد الشيخ عبد الهادي بن محمد السودي المتوفى سنة ١٩٣٢ الذي بلغ به حبه للقهوة أن وضع الحلة التي أهداها السلطان له في موقد القهوة ، كما ذكر هذه الحادثة مؤلف « النور السافر » ، وقد رأيت له ديواناً ضخماً في احدى مكاتب حضرموت باللهجة العامية كله يدور حول القهوة .

ومن شعراء القهوة أيضاً في اليمن الصوفي الكبير حاتم بن أحمد الأهدل المتوفى سنة ١٠١٣ هـ. وله ديوان موشحات أكثره عن القهوة .

ولا ننسى أيضاً الشاعر اليمني الكبير عمر بن عبد الله بامخرمة الذي شمل ديوانه الحميني الضخم على قصائد كثيرة عن القهوة ، وقد أوردنا فيما سبق نموذجاً من شعره في ذلك (١) .

---

(١) يقول هلفريتز في كتاب « اليمن من الباب الخلفي » ص ١٩١ :

« وحتى لو صح ما قيل من أن شجر البن ليست أصيلة في اليمن بل دخيلة عليها وقد جاءت من الحبشة القريبة فان أوربا وبلاد العالم الاخرى لم تعرف هذا الشراب المسمى بالقهوة إلا عن طريق اليمن » .

القات في الادب اليمني

هناك خطأ وقعت فيه دائرة المعارف الاسلامية حين زعمت أن القات عرف باليمن قبل الميلاد وأن أهل « مهرة » كانوا يسمونه (كاتاً) أو (كافاً). ويقول الملك عمداسيون : « لسوف اجعل من قصر (جيرالدين) قصراً لي وازرع فيه القات » . ولا ندري من أي مصدر اعتمدت عليه تلك الدائرة ، إذ المعروف أن القات لم ينتشر في اليمن إلا من أثناء النصف الثاني من القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ، ولو كان له وجود قبل هذا التاريخ لكنا وجدنا له ذكراً في كتب ما قبل هذا القرن، إذ نتصفحها ونقرأ ما فيها من تراجم وأشعار وحكايات فلا نجد ما يدلنا على وجود القات في اليمن خلال تلك المدة ، بل نقرأ الكتب المتخصصة في الأعشاب عند أهل اليمن فلا نجد له اشارة . ومن يتأمل كتاب الملك الأشرف يوسف بن عمـــر الرسولي المتوفى سنة ٦٦٥ هـ. المسمى « المعتمد في الأدوية المفردة » وهو معجم بأسماء الأعشاب والمعادن وخواصها الطبية يجده لم يتناول القات في حين تعرض لنبت يسمى (القت) أو (الفصفص) وقال عنه : « نبتة تجفف تشبه في ابتدائها الحندقوقا النابت في المروج فاذا نمت صارت أدق منه ورقاً ولهـــا زهر معوج مثل القرن اذا جف ويستعمل منها زهرها وورقها فتزيد في المني واللبن .. الخ » وهي أوصاف لا تنطبق على القات المعروف لنا الآن . في حين نجد الملك الأشرف يتناول (التانبول) وهو أشبه بالقات من حيث (الكيف) ، يقول : « هو المعروف بالتنبل وطعم ورقه

(١) بل قبلها رسالة الإمام شرف الدين (٩٦٥هـ) في تحريم القات . وقد نشر المؤلف ثلاث رسائل في القات الأولى رسالة الإمام ، ثم رسالة ابن حجر ثم رسالة يحيى بن الحسين (١٠٩٩هـ)

طعم القرنفل وريحه طيبة » الخ ، ولو كان للقات وجود في عصر المؤلف لكان أشار اليه كما ذكر التانبول .

وأقدم الاشارات اليه ما نجده في كتب القرن العاشر ، وقد تجاهل كتّاب اليمن شأنه في أول أمره ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عنه في حين نجد مؤلفي البلدان الأخرى خلال ذلك القرن يدرسون هذه الظاهرة الغريبة ويتصدون لها بالتأليف ، ومن هؤلاء العلامة أحمد بن حجر الهيتمي المصري المكي المتوفى سنة ٩٧٤ هـ. وقد ألف رسالته القيمة المسماة « تحذير الثقات من استعمال القات » وفيها يدلل بالحجج الرصينة حرمة القــات في الدين وضرره للجسم ، وحبذا لو أعدنا نشر هذه الرسالة لمطابقتها للحملة التي نحن فيها. ولعل هذه الرسالة تعد أقدم ما كتب في القات من مؤلفات مفردة .(١)

ويظل هذا القرن صامتاً عن الداء الذي بدأ يدب في أوصاله ولا تفصح لنا كتبه التي ألفها علماء اليمن عنه في شيء سوى ما نجده في كتب الحوادث التاريخية التي كتبت بعد القرن العاشر بقليل ، وهي ترجع بداية ظهور القات الى سنة ٩٥٠ هـ. وكان الإمام يحيى شرف الدين المتوفى سنة ٩٦٥ هـ. قد أمر بقلع شجرة القات عند أول ظهورها بعد أن علم أن أحد متعاطيها أخذت تعتريه الغيبوبة ، إلا أنه رجع عن رأيه بعد ذلك وأصبح من ضمن متعاطيها .

ويكتفي المؤرخ يحيى بن الحسين المتوفى سنة ١١٠٠ هـ. بذكر ملاحقـــة الإمام شرف الدين لشجرة القات وإعدامها . ويقول في نصه القيم ضمن حوادث سنة ٩٥٠ هـ :

« وفي هذه السنة ظهرت شجرة القات وكثرت في اليمن فرأى الإمام شرف الدين تحريمها وأمر ولده المطهر أن يأمر الناس بقلعها بسبب انه رأى شخصاً قــد تغير . فقيل له : تغير من أكل القات . فألحقها الإمام بسائر المغيرات » .

أمـــا المؤرخ محمد بن محمد زبارة المعاصر نجده يضيف الى هذا النص قوله : « ثم تبين له ، أي الإمام شرف الدين ، انه غير مغير ، وكان من المغرمين بشجرة القات ابنه عبد الله بن شرف الدين » . ولا ندري على أي مصدر اعتمد المؤرخ زبارة في هذا القول .

في الأدب اليمني :

تعرض الأدب اليمني المنثور لموضوع القات في ذلك النمط الذي استحدثه والمعروف بالمفاخرات أو المقامات . ونذكر منها المقامة المسماة «مسامرة الرفاق فيما بين القات والتنباق » ومقامة « ترويح الأوقات بالمناظرة بين القهوة والقات» ولن نتعرض لهذا النمط من الأدب لعدم وجود نصوصه الآن بحوزتنا .

ونكتفي بالجانب الشعري وهو حصيلة لملاحقات دقيقة قمت بها خلال كتب التراجم العديدة ، وأذكر منها بالأخص مجاميع المؤرخ الكبير محمد بن محمد زبارة ذات القيمة القصوى .

وقبل أن نخوض في شعر القات لا بد أن نشير الى انه شعر لا يرقى الى الأدب الجيد ، وهو في أغلب قصائده أقرب الى المنظومات التعليمية التي تقـــال في أغراض يقصد بها الحفظ وليس الخيال الأدبي . وهو بالمقارنة بينه وبين الخمريات نجد فارقاً كبيراً إذ لم تتفتق القريحة الأدبية في وصفه ولم تصل الى الذروة التي وصل اليها شعر الخمر الذي اصبح فناً من فنون الأدب العربي .

ولعل السر في عدم ابداع الشعراء في وصف القات كما أبدعوا في الخمر ، هو أن القات اكثر واقعية من زميله ، وهو لا يفقد متعاطيه وعيه ، ولا ينقله الى خيالات مفرحة كما هو الحال في الخمر بل يتركه مأسوراً داخل عقله وتحت أفكار بالغة الشدة تبدو واضحة على آكله . وقد يعود إخفاق شعر القات من الناحية الأدبية الى عدم وجود الجو الشاعري من كأس وساق اللذين وجد فيهما الشعر

مجالاً خصباً ، ويكفي ان ندرك ان شعر النواسي في الخمريات يدور أكثره حول الساقي .

وأمامنا من شعر القات منظومة الأديب اليمني عبد الله بن يحيى شرف الدين المتوفى سنة ٩٧٣ هـ. وهو من الأدباء ذوي الانتاج المتعدد ، منها شرح قصيدة والده « القصص الحق » وشرحها في مجلدين وأرجوزة طويلة في اربعمائة بيت في وصف صنعاء أسماها « الدراري المشرقات » وكتب أخرى في الفقه وأصول الدين ككتاب « حاشية على معيار اغوار الافهام » للنجري ، وكتاب رد فيه على صاحب القاموس في اللغة وشرح مقدمة كتاب الاثمار في الفقه ، وقصيدته في القات اهتم بوضع الزيادات عليها وتخميسها جملة من الأدباء ، وسيأتي ذكرهم فيما بعد ، وهي اذا صحت نسبتها اليه تعد من أقدم ما نظم في القات ، يقول فيها :

ادر غصون يواقيت من القات زبرجديات أوراق وريقات
يحلو تنـــاوله قلبي ورؤيته طرفي ، وتحلو به حالي وأوقاتي
قلوبه تحمل الأسرار تودعها قلوبنا ثم تسري في السريرات
براج معراج قلبي حين يصعده «جبريل» قلبي الى أعلى سماواتي
زيتونها زيتها الاضواء بها اتقدت فتيلة النور في مصباح مشكاتي
رأيت قلبي اليه قلبه ، تقت فليس بدعاً الى ما تاق للقات
كل المرادات فيه جمعت فلذا توجهت نحــــوه كل الارادات
أين القدود وتلوين الخدود و تنعيم الورود ولذات المذاقات
وكم خصائص ترويها مشايخنا الأ ثبات عن سادة في الدين اثبات
أما ترى قلم الرحمن خط على ألواح أوراقه رسم الجلالات
كله لما شئت من دنيا وآخرة وجلب نفع ودفع للمضرات

وأكله منه قال المرشدون بها … تنوير سر اعتكاف الأربعينات
فما أردت ارتقاءاً في سما نظري … في الكون إلا جعلت القات مرقاتي
فيرتقي بي الى أعلى مواطنـــه … والرين يذهب عن وجه مرآتي
فينجلي في صفا ذاتي فيحسبني … ذاتاً له وأراه انـــه ذاتي
تكسيره منتج في الانتهاء تقى … وعده عـــدة فافهم اشاراتي
قلوب أضلعــه تقري وتأمرني … ولا تفي في فصيحات العبارات

في هذه الأبيات ينقلنا الشاعر الى خيالات صوفية حيث يستعمل ألفاظ لا نجدها إلا في كتبهم كلفظة « الإسراء » و « المعراج » و « المشكاة » وغيرها. ونرى الشاعر وقد تصور نفسه خارج عالمه المحسوس والأنوار غاصة به من كل ناحية إلا أنه يعود الى واقعه حين يصف لنا خواطره عنه وما نقله عن شيوخه ومنها : ان القلب يحن اليه ويشتاق الى تعاطيه المرة بعد المرة وانه شفاء لكل الآلام . وقد يشتط في خيالاته حين يقرأ تلك الخطوط المتعرجة التي توجد على اوراق القات لأنها رسم للفظ الجلالة : « لا إله إلا الله » . اما من الناحية الفنية فقد استعمل في قصيدته « الجناس » ، وهو هنا ضعيف جداً كاستعماله فعل « تسري » مقابل « سريرات » او « قلبي » مقابل « قلبه » اي تحريكه ، وقد يكون هذا الجناس ناجم عن نقص لغوي يحسه الشاعر كتكراره لبعض الالفاظ مثل : اوراق و « وريقات » ويجلو وتحلو و « مرادات » و « إرادات » وغير ذلك .

وكان لهذه القصيدة أثر واضح في الترويج للقات في المجتمع اليمني لمكانة قائلها في ذلك الوقت . وقد أتى اهتمام الأدباء بها في القصائد العديدة المذيلة لها ومنها ما هو تشطير وتخميس، كذلك التخميس الذي كتبه معاصر الناظم وأخيه الأديب علي بن شرف الدين المتوفى سنة ٩٦٣ هـ. وأوله :

(١) أما الشوكاني فإنه تعاطاه وأكثر منه ، ذكر ذلك في رسالته في المسكر والمفتر في مجموع فتاويه ، بل حكى تلميذه العمراني محمد بن علي أن الشوكاني كان يصلي وهو يمضغ القات .

يا راح روحي وريحاني وراحاتي   يا نصيب عيني وراحي في مسراتي
ادر علي ولا تخش الملامـــات   ادر غصون يواقيت من القات

وعليها تخاميس اخرى تأتي في موضعها .

أما في فترات ما بعد القرن العاشر فقد أخذت صولة القات تزداد ، وبدأ يسلك طابعاً اجتماعياً ، وكان الادباء في الجبال هم المتبنين له والمدافعون عنه ضد خصومه من الفقهاء بالعديد من القصائد . أما في التهايم فان الذي تكفل بالدفاع عنه هم طائفة الصوفية الذين يحلو لهم التخميس لكل ما هو غريب . ومع ذلك فان طائفة من العلماء والأدباء من الشخصيات الجادة امتنعت عن تعاطي القات والاشارة اليه في قليل أو كثير امثال الحسن بن الحلال المتوفى سنة ١٠٨٤ هـ. وصالح بن مهدي المقبلي المتوفى سنة ١١٠٨ هـ. ومحمد بن اسماعيل الامير المتوفى سنة ١١٨٢ هـ. ومحمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ.(١) وأنت تقلب انتاج هؤلاء الضخم ومنها ديوان ابن الأمير الصنعاني ، البالغ اربعمائة صفحة ، فلا تجد أي اشارة للقات .

أما العلامة يحيى بن الحسين المتوفى سنة ١١٠٠ هـ. فقد تصدى لبيان موضوع القات في كتابه المسمى « المستخرجات البينات على تحليل الاشياء المستعملات من القهوة والطباق والقات » .

ولما كان القات من الاشياء التي لا يتفتح فيها الخيال ، كما أشرنا سابقاً ، فان شعراءنا انصرفوا في شعرهم عن القات بالتشبيب بآكليه وما يختص بذلك من مناظر جميلة .

وها هو الشاعر ابراهيم بن صالح الهندي المتوفى سنة ١١٠١ هـ. يرى غلاماً جميلاً ، وقد اخضر فمه بأعشاب القات ، فيقول عنه :

أشبه ثغره والقات فيه　　وقد لانت لرقته القلوب
لآلىء ؛ قد نبتن على عقيق　　وبينهما زمردة تذوب

أما الشاعر احمد بن الحسين الرقيحي المتوفى سنة ١١٦٢ هـ فيتغزل ببائع القات نفسه ، وكان يسمى ناصر :

للقات غيري عينوا　　شخصاً سلى عن مهجته
أخشى الحسام فانه　　أمر القلوب بسلته [١]

وقد دخل القات شعر المفاخرات بين البلدان ، فالشاعر اليمني حمود بن عبد الله الارياني ، من اهالي القرن الرابع عشر ، حين يحكي عن مميزات بلده (جبلة) يذكر انها تضم كثير من القات كما انها تحتوي على فواكه وأشجار وجامع وغير ذلك ، يقول :

وان فيها جامعاً منيراً　　وكان حقاً يشرح الصدورا
وانها حفت بنهرَي ماء　　يجلى بها القلب من الصداء
فيها من القات الكثير جداً　　في ذلك الطويل لن يعدا
فيها من الاشجار كل صنف　　والبن والرمان يا ذا اللطف .. الخ

أما الشاعر علي بن الحسن الخفنجي المتوفى سنة ١١٨٢ هـ. حين يفاضل بين مدينة الروضة وبئر العزب فانه يعيب على الاولى ان الفقير فيها لا يجد ما يشتري بها القات :

(١) السلة هنا هي : زنبيل القات .

جعلت بئر العزب حتى اللطاف	والروضة النائية كم من كثيف
والروضة الغانية حتى النظاف	من كان فارد عاد فيه الضعيف
وفي الشتاء أوجاههم مثل الشقاف	وقد ترونق مع أيام الخريف
يصبح من البرد في القد انعكاف	وفي الليالي الموحشة يسمع وديف
تخشى عليهم من البرد النشاف	لا به مربا ولا تربـــة عليف
وكم مولع بهـا ملقوف لقاف	لا قات يلقى ولا به ماء خفيف

ومن المقاطع القصيرة التي حفل بها الشعر اليمني خلال القرون الثلاثة التي سبقت عصرنا الحديث نماذج كثيرة منها ما هو على شكل تخميس كنظم الشاعر الحسين بن علي بن المتوكل في تخميسة لقصيدة عبد الله بن شرف الآنفة الذكر وأوله :

يا قدس قلبي ويا محراب ميقات	ونور عقلي في حال المناجات
بروح روحك يا راحي وراحاتي	أدر غصون يواقيت من القات

وقول الشاعر احمد بن حميدين في نفس الغرض :

يا من علا ما على زهر السماوات	ومن سمى سماء أعلى المقامات
ومن حوى كل اسم في العبارات	أدر غصون يواقيت من القات

والشاعر احمد بن الحسين بن المنصور من القرن الثاني عشر يعيب على مجالس أهل عصره بأن اغلبها يدور حول الأكل ، ولهذا فقد تركهم ليتفرغ لأكل القات ، يقول :

لا تطمعن براحة في مجلس	أضحى الحديث به عن القات
واصرف همومك من فؤادك كلها	واقنع بقوت الصالحين الثقات

وفي العصر الحديث ظل الشعر اليمني يسلك نفس الأساليب القديمة التي عرفها الأدب العربي من وصف ومديح ورثاء وكأنه لم تحدث هناك نهضة أدبية ، وهو يبدو أكثر انغلاقاً خلال عصر الإمام يحيى بن حميد الدين .

وقـــد أتى شعرهم عن القات صورة لتلك الطريقة القديمة التي عرفناها في الأنماط الأولى . ومن ذلك مقطوعة الأديب محمد بن احمد الشامي اتبـع فيهـــا طريقة ابراهيم الهندي في وصفه لغلام وفي فمه قات ، يقول :

لما بدا أدعج العينين مبتسماً	كأنه البدر يجلو ظلمة الغسق
والقات في فمه فيروزج وشفا	ت الثغر ياقوتة والوجه كالفلق
فقلت من عجب هذا بمبسمه	(فيروزج الصبح أم ياقوتة الشفق)

أما الشاعر محمد بن يحيى الارياني المتوفى سنة ١٣٥١ فانه يفاضل بين قات قريتين من قرى (حجة) الاولى تسمى (حرام) والثانية (حلال) ويستعمل ما فيهما من تناسب :

هات لي يا نديم ربطة قات	ان في القات راحة للنداما
فاذا ما أكلته من حرام	كان حلاً ومن حلال حراما

وفي هذه المرة شهدت اليمن انقسام الادباء فيما بينهم في تفضيل القات وذمه وعلى رأس الفريق الثاني الاديب جمال الدين القاضي علي بن عبد الله الارياني المتوفى سنة ١٣٢٣ هـ. يقول في قصيدته :

تولعتم بالقات والقات قـــاتل	وفي حذف حرف اللام منه دلائل
وكم قد رأينا من رجال تولعوا	فقد ثكلتهم بعد ذلك الثواكل
إضاعة مـــال ثم فقر وفاقة	ويبس يضر الجسم والجسم ناحل

وما هو إلا الضر من غير شبهة ويقطع بالإكثار منه التناسل
ومنه يزول العقل من غير مرية ومنه السهاد الأعظم المتطاول
وكم فيه من داء عظيم وانمـــا لأجل التداوي بعضه يتناول
قليلاً لإذهاب البخـــار وانه يضر أحيانـــاً وتلك قلائل
ولكنه من بعد يورث غمـــة على القلب منه الكرب لا شك نازل
فلا تكثروا من أكله يا أحبتي وقد يقبل النصح الرجال الافاضل
وقدر الذي يعطي المريض تداوياً ثلاثاً من الربط الذي يتفاضل
يكون ملآن الكف دون زيادة وقدر الذي يعطي الصحيح الحلاحل
الى ربطة والخير في نصف ربطة فهذا الذي أومأ اليه الاوائل
ومن رام قولاً غير هذا فانني أحاكمه يوماً بمـــا هو قائل

وهذه القصيدة حاوية لمساوىء القات وهي دليل لكل من يقول بمحاربته. وقد بيّن فيها ضرر القات على الجسم وتأثيره في عدم الانجاب وانه يابس ومجفف للدماغ وغير ذلك.

وقد تصدى للرد عليه زميله الاديب يحيى بن محمد الارياني في قصيدة كتبها على نفس الوزن سنة ١٣٣٣ هـ. يقول:

سمعت نظاماً صاغه الماجد الذي به «اريان» فخراً في البلاد تطاول
علي بن عبد الله عمته رحمـــة من الله ما دامت تسير المنازل
ابان خواص القات فيـه محققاً وقدر الذي منـــه يباح التناول
فقلت مريداً ان اذيله بمـــا يقر بمـــا قررت فيه الافاضل
إلا أنه لا شك في الطبع يابس وقل هو ايضاً بارد يا حلاحل
ويختلف حسب البـــلاد بزرعه وبالطبع ثم الذوق لا يتشاكل

فطوراً تراه في اليبوسة غايــة … مع الضر والتخدير والبعض عاطل
ففيــه من الاضرار تقليل باءة … ويبس الى القولنج لا شك واصل
ولا شك في التكدير من بعد أكلة … ولكنه في البعض لا الكل شامل
وهــذا الذي قررته في كثيره … وليس يضر المرء منه القلائل
فان نصاب القـــات فيه مقدر … بضعف الذي ضمت اليه الانامل
يساوى اذا سميت اكبر بائـــح … وللربطتين القدر منه يماثل
وأما الذي فيه من النفع فهو أن … يزيل بخـــار أغفلته الصياقل
وان كنت في ارض الوباء وخفت أن … تسوق لك الامراض تلك المنازل
فاحسن بأكل القات في حفظ صحة … اذا اختلفت للشاريين المنـــاهل
ومن يك من ضر الرطوبة خائفاً … ففي القات تخفيف الرطوبات حاصل
ويطرد نوماً ان اردت تهجداً … فنعم المعين إذ تقـــام النوافل
يزيل الهموم النازلات على الفتى … فتهرب عن قلب الكئيب الشواغل
ويعطيك أفراحاً وروحاً ورحمة … كأنك مـــا بين السماكين نازل
فيغني عن الصهباء وليس بمسكر … وليس بمحضور فيأثم آكل
ولا سيما قـــات البخاري فانه … أصح كما قـــال الرجال الأماثل
وليس يجاريه بميدان فضله … (كجران) فاترك ما تقول العواذل

فشاعرنا في ابياته يتوسط بين الفريقين ويذهب الى انه مضر للجسم من ناحية ومفيد له من ناحية اخرى ، ومن مضاره انه مسبب لمرض القولنج وقاطع للنسل إلا أنــه سبب في إحياء الليالي العامرة بالعبادة ومنفى للرطوبات المتراكمة في الجسم ، الى غير ذلك من فوائد .

ويستمر نقد الأدباء للقات خلال تلك المدة التي عاصرت فترة الإمام يحيى بن حميد الدين ، وينظم الشاعر اليمني علي بن يحيى الارياني المتوفى سنة

(1) لا توجد نصوص قاطعة ولا حجج قاطعة على الحرمة ، وإنما قيل فيستقل المسألة خلافية شأن من حار وأتى من أعلى ، وممن خير من تحدث في المسألة هو ابن حجر الهيتمي رحمه الله. (عرجين)

١٣٥٨ هـ. قصيدته الرائعة في ذمه ، ويبين بالحجج الدينية القاطعة(1) حرمة هذه الشجرة في شريعة الاسلام ، فيقول :

ألا إن بعض القات أوله سكر ... وآخره حزن كما تفعل الخمر
على ان هذا أصل كل مضرة ... وتلك بها نفع كما نطق الذكر
ولكنه غطى على النفع اثمها ... فحرمها رب الورى من له أمر
وما البعض منه مسكر فجميعه ... حرام كما قد قر السادة الطهر
فما لكم يا قومنا قد جهلتم ... ولم تعلموا ان الولوع به خسر
وها قد علمتم ان منه مخدر ... لبعض بني الانسان فاتضح الوزر
فلو قلتم : الاصل الاباحة عندنا ... ولم يأت عن خير الأنام به حظر
لقلنا نعم لكنما الشرع قد أتى ... بتحريم ما فيه لأكله الضر
وقد جاء في جلب المصالح ضامناً ... كما جاء في درء المفاسد فاستقروا
وكم في تعاطي القات ذا من مفاسد ... مبنية عظمى يضيق بها الحصر
فكم من غني مذ غدا مولعاً به ... لقد مسه من بعد إيساره العسر
كذلك كم ألهى امرءاً عن صلاته ... فلولاه لم تترك بأرضكم العصر
وكم من أناس لازموه فأصبحوا ... لإكثارهم منه ومثواهم القبر
ولو قلتم لو كان حظراً لما غدا ... له آكلاً من قومنا سادة زهر
لقلنا اجتهاد ذاك قد أخطأوا به ... وليسوا بمعصومين في شرعنا فادروا
ولم يجمعوا حتى يكون اجتماعهم ... لكم حجة تنجي اذا جاءنا الحشر
وكيف وذا بعض الأئمة قبلهم ... غدا آمراً في قلعه إذ بدا الشر
وقد قلعوا إذ أصدر الأمر غرسه ... ولو لم يحرمه لما صدر الأمر
ولو علم الباقون اضراره لما ... أباحوا الذي في بعض انواعه سكر
ولو قلتم اضراره لم يقل به ... سوى من يعاني الطب من قوله نكر
ألا فاقبلوا مني النصيحة واقلعوا ... عن القات ان القات يا قومنا شر

في هذه الأبيات لا تجد روعة الاسلوب ولا سمو الخيال وانما صدق شاعرها وإخلاصه في نصح قومه ومحاولته إبعادهم عن تلك العادة السيئة التي اقترنت بهم . ولم يجد وسيلة لمنعهم عنها سوى جانب الدين فأبان لهم حرمتها[1] بذلك المنطق المعهود في كتب الفقه واستعماله لمفرداته كالإجماع و « المصالح » و « درى المفاسد » وغيرها .

ولسوء الحظ ان الشعر اليمني لم يسكت عن هذا التجريح بالقات فتصدى للرد عليه ونقده معاصره الشاعر الاديب عبد الله بن احمد الإرياني ، يقول :

أتانا نظــام من ذكي مهذب ... اليه اعتزى المجد المؤثل والفخر
أفاد بإن القات مردى وانه ... لإسكار وبعض منه في شرعنا خطر
فهاك جواباً عن نظامك انه ... حلال غدا ما في تناوله وزر
وليس به كل المضرات بل ولا ... قليل كما قلتم ولا اثم فاستقروا
وان كان منه البعض للعقل هادياً ... فذا من خواص الارض لا منه ان تذروا
وإلا فتحذير العقول من الربا ... ح لا منه حال الرشح ايضاً وذا نزر
وليس سوى أكل ولبس من الدنا ... لكل فتى أو فعل خير به أجر
وفي أكل هذا القات كم من مصالح ... اذا عددت في الطرس ضاق بها الحصر
ومن بعض هاتيك الفضائل انه ... يزول به حزن ويصفو به فكر
فكم من فقير صار ذا ثروة به ... ومن قبله قد كان ضربه الفقر
ومن كان مولوعاً به وهو ذو غنا ... ومن بعده قد مسه الفقر والعسر
فذاك فضل الله يؤتيه من يشاء ... وعدل من الرحمن كان به الخير
وان تركت تلك الصلاة بزعمكم ... فمن جهة الشيطان لا منه ذا المكر
ولا تعتبوني في الخلاف فانما ... لدى أكل ذاك القات انشىء ذا الشعر

هذه حجج انصار القات وهي أحياناً لا تعتمد على منطق يقبله العقل بل فيها ما يمكن ان نعده حجة ضدهم وصاحبنا يعترف بأنه مفقر للغنى .

واذا تجاوزنا هذه الأنماط من الشعر وهي تلك التي تدافع عنه أو تذمه، نقف عند الشعر الذي يصفه ويعدد محاسنه . وقد جمع أحد شعراء العصر بينه وبين القهوة في منظومة ارسلها الى شيخه . يقول الأديب عبد الكريم بن احمد مطهر المتوفى سنة ١٣٦٦ هـ . في قصيدة أرسلها الى الشيخ عبد الرحمن بن حسين الحبشي سنة ١٣٣٦ هـ :

شرب الغصن حمياً مائه	فلذا اهتز اهتزاز المنتشي
وحبت ايدي الحيا جسم الحمى	حلل السندس للمفترش
وارتقت عرش الهنا اطياره	ما احيلا ناطقات الأعرش
تتغنى في ذراه كلما	رقص الغصن لبعد العطش
سمع العصر وراق الدهر يا	مسعدي ان نال حظي كل شي
فاسقينها قهوة قشرية	هي من اخزفها في المنقش
مثلث في كأسها ياقوتة	تشرح النفس وتطوي الموحش
ثم صلني بالذي أعشقه	قات أنسي، من يذقه ينعش
هي أغصان زبرجد اذا	شامها الطرف غدا في دهش
لطفت ذوقاً ومسا ومتى	نظمت شمل الهنا لم يخدش

مجالس القات بين القصة وأدب الرحلات :

ونحن نقلب نصوص القصة في الأدب اليمني لا يجب ان نطمح في العثور على ذلك التحليل الدقيق لنفسية المتعاطي للقات لعدم وجود القصة الشاملة المستوعبة لكل أصولها الحديثة ، وكل ما أتي فيها من اشارة للقات ليس سوى

وصف سطحي لمجالسه التي يؤمها (المولعون) به ، ولعل أول الاشارات اليه مـــا جاء في القصة الطويلة التي كتبها الاديب اليمني محمد علي لقمان ، المسماة « سعيد » ، وفيها نقف على عادات أهل اليمن في مفتتح القرن العشرين في أكل القات ، ومنها ما تلاشى الآن :

« اتخذ سلمان – احد اشخاص القصة – لنفسه مقعداً على فراش وثير ، واضعاً تحت مرفقه الأيسر بعض الأرائك وبجانبه كمية من القات المجلوب من مدينة تعز وأمامه صندوق من الابنوس الاسود من صنع (منيبار) في الهند وبقربه مداعته الثمينة وكوز ماء معطر وشيء من الثلج وقد صفت الكراسي في تلك الغرفة الواسعة وجلس عليها عدد من الاصدقاء والاضياف ، وفاح في جوانب « المبرز » عبير العود والعنبر والعطر ، وأخذ المقيلون في مضغ القات ثم شرعوا يتحدثون عن الكمية التي وردت منه في ذلك اليوم » .

هذا نموذج مما كتب في القصة عن القات ، أما أدب الرحلات فهو موضوع متشعب، وقد برز فيه الاجانب ووفقوا غاية التوفيق في تصوير حياتنا الاجتماعية من شتى نواحيها ، وهم حينما تعرضوا للقات دخلوا الى صميم موضوعهم بإسهاب وتوسع . وما كتبوه كثير جداً ، حتى انه يكون بحثاً مستقلاً سوف نفرده بالدراسة في موضوع آخر .

والآن لنقف عند نماذج سريعة مما كتبه الرحالة الذين زاروا اليمن وكتبوا عن القات ومجالسه ، ومنهم الالماني هانز هولفريتز ، يقول في كتابه « اليمن من الباب الخلفي » :

« يلتف أفراد العائلة وأصدقاؤهم حول بعضهم البعض ساعة تناول القات ، ويأتي الخادم بحزمات القات مربوطة ويضعها أمام رب الاسرة ويشرع بدوره

فيحل هذه الحزمات ، ويذوق محتوياتها لاختبار جودتها ، ثم يوزع القات على ضيوفه ، ولا يجري التوزيع بالعدل على الجميع ، وانمـــا يتناول كل فرد – وفقاً للتقاليد – حصة تناسب درجته . وتبدأ حفلة القـات بعد إجراء التوزيـع ، ويقوم المدمنون باقتطاع الاوراق من عساليجها ويضعونها في أفواههم (ويلوكونها مع بعض الرماد !) وتستمر هذه العملية بعض الوقت ، ويجلس الجميع وقد انتفخت أوداجهم بالقات الذي يأكلونه ، ثم يبلعون الورق الاخضر ، أما بقايا العسلوج فتبصق ، ويتناولون بعد ذلك قليلاً من الماء أو بعض القهوة ».

مراجع مختارة عن القات

- « تحذير الثقات من استعمال القات » : للهيثمي .
- « نصيحة الاخوان من استعمال القات والدخان » : للسقاف .
- « رسالة في مدح شجرة القات » : لمجهول (مخطوطة) .
- « المستخرجات البينات على تحليل الاشياء المستعملات من القهوة والطباق والقات » : ليحيى بن الحسين (مخطوط) .
- « القات » : لبامطرف، رسالة نشرها في دمشق، وهي دراسة من الناحية الكيمائية .
- « القات » : لعبد الرحيم لقمان ، محاضرة ألقيت بعدن سنة ١٩٤٢ .
- « اليمن بين القات وفساد الحكم » : للسيد فؤاد أيوب، نشر ضمن سلسلة (إقرأ) .
- « دائرة المعارف الاسلامية مادة قات » .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مدخل الى فهم المصادر اليمنية	٥
مرحلة الأسطورة	٧
ابن المقري فقيه اليمن وشاعرها	٢٧
نزعة التحرر في الفكر اليمني محمد بن ابراهيم الوزير	٤٥
الشوكاني ناقد المجتمع	٥٥
ذكريات الشوكاني عن علماء عصره	٦٣
دور المرأة اليمنية ثقافياً	٧٣
الكوكباني ومخطوطته « طوق الصادح »	٨٥
الحسن الجلال ومؤلفه « براءة الذمة في نصيحة الأئمة »	٩٥
الأهدل ومخطوطته « النفس اليماني »	١٠٣
الدوامغ في التراث اليمني	١١٣
أدب القهوة في التراث اليمني	١٢٧
القات في الأدب اليمني	١٤١
مراجع مختارة عن القات	١٥٧